جان إشنوز

بروق

رواية

12.5.2017
@ketab_n
Follow Me

ترجمها عن الفرنسيّة
أبو بكر العيادي

جان إشنوز

بـروق

رواية

ترجمها عن الفرنسيّة

أبو بكر العيادي

مراجعة

كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة»
بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ2665.C5 D4712 2016

Echenoz, Jean, 1947-

[Des éclairs]

بروق : رواية / تأليف جان إشنوز ؛ ترجمة أبو بكر العيادي ؛ مراجعة كاظم جهاد. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2016.

196 ص. ؛ 11 × 18 سم.

ترجمة كتاب : Des éclairs

تدمك : 978-9948-13-963-8

1ـ القصص الفرنسية– القرن 21.

أ– عيادي، أبو بكر. ب– جهاد، كاظم. ج– العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

Jean Echenoz

Des éclairs

© 2010 by Les Editions de Minuit

الغلاف: نيكولا تسلا بجوار أحد محوّلاته ذات التردّد العالي

كلمة KALIMA

www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

عام القراءة 2016

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

بـروق

Twitter: @ketab_n

ديباجة

هذه واحدة من ثلاث روايات للكاتب الفرنسيّ جان إشنوز Jean Echenoz نضعها بين يدي القارئ العربيّ بصورة متزامنة، آملين أن يقرأها تباعاً مثلما أراد لها مؤلّفها أن تُقرأ، أي بما هي عناصر متضافرة ومستقلّة في الآن ذاته لمشروعٍ أدبيّ واحد. في كلّ واحدة من هذه الرّوايات البيوغرافيّة أو السِّيَر، يقيم إشنوز شعريّة خاصّة تقترن بمواصفات بطل كلّ رواية ونظامه الشعوريّ والإدراكيّ، وتجترح لغة قادرة على عكسه في خصوصيّته، لا بل في فرادته.

كرّس إشنوز هذه الكتب الثلاثة لمؤلّف موسيقيّ وعدّاء وعالِم، وفي كلّ منها نقع على اصطدام العبقريّة بعائقٍ أساسيّ أو بجملة عوائق. في «رافيل» *Ravel* (2006) نقف على تناوب الاحتدام الإبداعيّ وتدهور الذاكرة

Twitter: @ketab_n

والجسد، على تسارع الفعل الفنّيّ وتباطؤ عمل الأعضاء. وفي «عدْو» *Courir* (2008) نرافق مسيرة تصاعديّة لعدّاء يجدّد الرياضة بمنتهى العفويّة، بلا تخطيط وبلا حساب، ثمّ سرعان ما يتلقّفه التاريخ بتناقضاته ويقوده إلى منطقة من الظلّ لا تثلم عظمته مع ذلك ولا تقلّل من حصّة الفرادة في أدائه وفي تكوينه. وفي «بروق» *Des éclairs* (2010) نكون، بدءاً بالعنوان، أمام تسارعاتٍ ضوئيّة ولهْبة مشاعرَ وأفكارٍ ومشاريعَ مذهلة في وفرتها وغرابتها، يتلوها انطفاء سريع لحياة مشبوبة، مسيرة إعجازيّة بقيت مبتورة حتّى لَتشكّل تجسيداً حيّاً لحسرة أبولينير: «هل من ومضةٍ تدوم؟».

ما يمسك بنا في رواية «بروق» هذه من أقصاها إلى أقصاها هو، من بين أشياء أخرى بعيدة الدّلالة، حدّة هذا التباين الأليم بين سخاء المخترع وشحّة المحيط. بخل الرأسماليّة الصاعدة وحساباتها، وكرم الباذل الذي يريد إنارة المعمورة بكاملها مجّاناً، يضحكون منه ويسرقون براءات اختراعاته وعوائد مبتكراته حتى ينتهي وحيداً معزولاً، واجداً بعض عزاءٍ له في الهذيان الأنيق والسّلوك

Twitter: @ketab_n

المُفارق، في محبّة الطيور ومعالجتها وتضميد جراحها، أي في الانغماس المتزايد في غرابة شخصانية بها يواجه غرابة عصره، غرابة ضدّ غرابة وتأكيد على شجاعة الذّات في مواجهة النكران.

نلاقي أيضاً لغة سرديّة تلائم الشخصية المحورية وتعكسها في كلّ تنامياتها؛ موسوعيّة فاعلة وليست من النوع الذي يمكن نيله من الكتب أو جرائد الفترة المعنيّة، بل هي تُلزم بانخراطٍ وتفاعل وابتكار.

مفتونين، متعاطفين، نواجه غرابة نيكولا تسلا Nikola Tesla الذي، خلافاً لما نرى في تناول إشنوز لسيرتَي موريس رافيل وإيميل زاتوبيك في العملين الآخرين من ثلاثيّته هذه، يتلقّى هنا من لدن الكاتب اسماً أوّل مستعاراً هو غريغور Gregor، كأنّما ليذكّر بالحرية الإبداعية التي منحها الروائيّ لنفسه في معالجة هذه السّيرة خصوصاً.

تَضادّ التوحّد الخلاّق والتكتّل الرأسماليّ. حقبة ظهور واستعراء ونفاجة معمّمة يواجهها تسلا بإبداعية كاسحة، نزقة إلى حدّ ما، ومنزّهة، تجرّد وعلوّ روحانيّ سيكون هو الباعث الأساس لمجده وبؤسه في آنٍ معاً. إنفاقٌ كلّي

Twitter: @ketab_n

للطاقة الفردية ولِذاتِ اليد، رفض للرّبح، تقشّف حتّى الامّحاء، وعبقرية تطوّع الجنون ثمّ تنكفئ أمام حقبة ترى في الكرم الباذخ والإبداع العلميّ المنقّى من فلسفة المنفعة والرّبح عدوّها الأساس. وهو ما يلخّصه ردّ الفعل المصعوق الذي يدلي به أحد مموّلي تسلا عندما يعلم بنيّته في ابتكار نظام يمكّن من مدّ المعمورة بكاملها بالطاقة الكهربائية مجّاناً: «منظومتك لا تستقيم أبداً. فإذا أمكن للعالم كلّه أنْ ينهل من الطّاقة كما يشاء، فما يكون مصيري أنا؟ وأين سأضع العدّاد؟»

فنٌّ للبورتريت في النهاية، رسمٌ نافذٌ لفرادةِ شخص. لا كليّة الشّخص، فهذا هو وهم السّير الذاتية الكليّة الذي تخلّى عنه إشنوز بادئ ذي بدء، بل تركيز نهائيّ على مُنحنىً أساسيّ في تجربة الشخص، على خطّ قوّة أو خطّ هروب يلخّص كامل عبوره واختراقه العنيف والصاحي لمصيره. منحنى يصبح هو الموشور الذي يقرأ من خلاله تاريخَ رجلٍ. ما من تأويل نفسيّ أو اجتماعيّ أو تاريخيّ بل رصدٌ موضوعيّ ماديّ لما هو مرئيّ. لا ولع بالأسرار ولا تعمية ولا ألغاز، بل استنطاق للعجيبة الأرضيّة تماماً،

Twitter: @ketab_n

المتمثّلة في تصادم خطوط قوى وبروز منحنى الشخص في ذروة تقاطع القوى هذه، أو في قلب التيّارات المتصارعة. ملحميّة متقشّفة وشظايا تتخفّى على منهج وعلى شعريّة تعمل بالإضمار.

لا إعلاء لنمطٍ بطوليّ أو سواه، بل تمسّك بالعاديّ المفاجئ، وباليوميّ المفارق، والملموس العجيب. جهدٌ ومقاومة، صمودٌ وتعب، وحصّة عالية من الغرابة لا غرابة فيها في حقيقة الأمر، فما هي إلاّ اقتناصٌ لفرادة شخصٍ مقبوض عليه في مشهده الأليف. الملموس هو هوس رافيل بموسيقاه ورؤيته للعبارات الموسيقية تنتظم في فكره حتّى قبل أن يدوّنها. والملموس هو شغف تسلا بالكهرباء ورؤيته للآلة واشتغالها وهما يرتسمان في ذهنه بتشخيص نهائيّ حتى قبل أن يرسمهما، إذ أنّ وجوده كلّه صار مساراً ضوئياً وسلسلةَ التماعاتٍ باهرة أو شريطَ بُروق. والملموس هو عالم إميل زاتوبيك الذي يشكّل سلسلة طويلة من خطوات راح يوسّع من مداها أو من وثبتها حسب عبقرية اللّحظة ومواقع الخصوم.

هذه الأشياء كلّها هي مسائل كتابة، ومجازات عن

Twitter: @ketab_n

الكتابة الأدبية ومشاغل أسلوبية. فما يكون الأسلوب أو الاشتغال عليه إن لم يكن امتحاناً في المسارعة والإبطاء، بروقاً مفاجئة وصراعاً مع الذاكرة واستيلاداً للموسيقى من كثافة صمتٍ معبورٍ بشجاعة؟

أسطورة نيكولا تسلا (1856–1943) الشخصيّة هذه يقيمها إشنوز بشيء من الدّعابة على خلفيّة طبيعيّة. دعابة، نَقول، إذ هو من آخِر من يؤمنون بإمكان تفسير سرّ العبقريّة بتأثيرات الطبيعة وظروف الولادة. ولد تسلا في ليلة عاصفة في سميليان، التابعة يومذاك إلى الإمبراطورية النمساويّة، وإلى كرواتيا حاليّاً، في كنف عائلة صربيّة، في مكان بلا ضوء، فكان هو المنذور لتوسيع رقعة الضوء في العالَم كلّه.

شغفٌ بالكهرباء يقوده في أولى ثوراته العلمية والتكنولوجيّة وأبعدها أثراً إلى اختراع التيّار المتناوب، الذي يوصل الطاقة بعيداً عبر العالَم، بديلاً عن التيّار المتواصل المحصور في مساحة ضيّقة. مزاج عاصف، شخصيّة غضوب، طبع كاسر، شديد الارتياب، ورفض للملْك سيكون هو الباعث في خسارته المأساوية، هو الذي

Twitter: @ketab_n

جعل العِلم والعالَم يربحان من مبتكراته الكثير، الكثير.

الولايات المتّحدة الأمريكية التي هاجر إليها تسلا في سنّ الثلاثين نقابلها هنا في عنفها اللّا إنسانيّ كلّه. نصف قرن من التقدّم العلميّ في مجال الكهرباء وما يرتبط بها أو يقترب منها يظلّ مقترناً بشخصه، ما يفسّر كونه ظلّ حتّى اليوم مشهوراً جدّاً في أمريكا الشمالية وأوروبا الشرقية، وأقلّ شهرةً للأسف في فرنسا، حتّى جاء إشنوز فوضع له هذه السيّرة المقتصدة والباذخة، تتقدّم إلينا كمثْلِ نشيدٍ هادرٍ، قصيدة استثنائيّة في توهّج النّبوغ وعزلته التي نكاد ننعتها بالتأسيسيّة.

عبر ابتكاره للتيّار المتناوب وللمذياع والأشعّة السينيّة والهواء السيّال و«التيليكوموند» أو أداة التحكّم عن بعد، والإنسان الآليّ أو الروبوت، ومسرِّع الجزيئات، وتصوّر ريادِيّ للإنترنيت، واختراعات أخرى تشترط وجودنا الرّاهن والآتي كلّه، يظّل تسلا أو غريغور حاضراً في حياتنا أكثر ممّا نتصوّر.

كان يخترع وينسى تسجيل براءة الاختراع، أو لا يحيطها بالحماية الكافية. اخترع الراديو كما أسلفنا، ولكنّ

Twitter: @ketab_n

اختراعه ارتبط بالإيطاليّ ماركوني، على أثر سهوٍ ارتكبه تسلا نفسه- وليس هذا هو السّهو الوحيد في مشواره العلميّ المديد- في استثمار براءة اختراعه له. والنيون بقوتّه الضوئيّة المهرجانيّة وأضوائه اللّاصفة آتٍ من إحدى ألعابه الاحتفالية التي كان يبتكرها لمتعته ومتعة جمهوره، ويهمل تسويقها.

هذا كلّه تتنوّع كتابة إشنوز وتتعمّق بما فيه الكفاية لتعبّر عنه وتكتنفه بتكتّم وبراعة. وصْفُه عجائبيّ دون أن يبدو عليه ذلك: تعجيب «على البارد» إذا جاز القول.

يرينا الكاتب في غريغور كائناً معقّداً، حالماً، ساحراً يجتذب الجمهور إلى حدّ الهذيان بعروضه التقنيّة التي بها حوّل عرض مشاريعه العلمية واختراعاته الجديدة إلى أعياد باذخة، وإلى مسرح أو سيرْك من نمط جديد.

راءٍ منهمك ببراءة في صناعة أسطورته الذاتيّة، طَموح منهوب ما فتئ يتعرّض لأذى الحسّاد والنفعيّين، تهميش راح يتفاقم بقدر ما تتبدّى ملامح فلسفته اللّا ربحيّة ونيّته في مدّ المعمورة بكاملها بالضوء الكهربيّ دونما مقابل، تحويل الضّوء إلى طاقة مجّانيّة تكون في متناول الجميع في

Twitter: @ketab_n

كلّ مكان، وهو ما لم يحتمله عصره وما قد لا يحتمله أيّ عصر.

فلننظر إلى مشغّله الأوّل ومنافسه الكبير، إديسون، مخترع التيّار الكهربائيّ المتواصل، وهو يشنّ حربه على التيّار المتناوب، هبة نيكولا تسلا الكبرى للإنسانيّة. لا يركّز إديسون إلّا على مخاطر التيّار المتناوب، التي هي مخاطر الطاقة الكهربائيّة أصلاً. راح يجرّبه على مرأى من الجمهور في إعدام قططٍ ثمّ فيلٍ، ثمّ ابتكرَ من خلاله أوّل كرسيّ كهربائيّ لإعدام إنسان. هي صفحات ملأى بالسخرية السوداء يرينا فيها إشنوز الرأسمالية في وجهها الحقيقيّ، تكشيرة الموت المتخفّية وراء ابتسامة حاملِ قناعِ مجدّدِ العِلم والمُخترِع الكبير.

عوائق بلا عدد، غيرة قاتلة، حاجات إلى التمويل دائمة، وعندما تأتي الفوائد الضخمة يقابلها غريغور بعدم اكتراث راح يقوده شيئاً فشيئاً إلى فقر مريع. هي ملحمة اللّا انسجام: لا تلاؤم العبقرية وحسابات العصر. كان تسلا أسرع من العصر، وحتّى النهاية ظلّ يصدر عن منطق مناوئ لقيَمه وحساباته. ما إن أراد إنارة المعمورة

Twitter: @ketab_n

كلّها مجّاناً كما أسلفنا حتّى صاروا يعدّونه مجنوناً ولم يسمعوه حتّى عندما كان في مقدوره أن ينقذهم ويقلّل من أضرار الحرب العالميّة الثانية إذ اقترح بناء أسلحة دفاعيّة تسافر بلا بشر، شاعت فيما بعد تحت تسمية «صواريخ»، واجتراح أجهزة وقائية سوف تشيع لاحقاً تحت تسمية «الرّادارات».

طاقة ذهنية وروحيّة عارمة هي إذن هذه التي نبحر في رفقتها على امتداد الكتاب، إبداع بلا حساب، شغف بالطيور صار غريغور في سنيّه الأخيرة ممرّضها المتطوّع حتّى طُرد من محلّ إقامته بسببٍ منها. عشق متكتّم لزوجة مموِّله ومشجِّعه، يكاد يخشى أن يبوح بحبّه لها إلى نفسه، في ورع إزاء الصداقة حقيقيّ.

هذه الأعمال الثلاثة عن فنّان وعالمٍ وبطلٍ عدّاء هي تنويعات ثلاثة على مأساة العبقرية في مختلف وجوهها: هرب الزّمن وانكسار التطلّعات وخذلان الجسد والذاكرة وشرَه المجتمع، بما فيه المجتمع الفنّيّ والرياضيّ والعلميّ. حساسيّات كبرى بلا مناعة، وأناقة في الخسارة، وشموخ في التّيه.

Twitter: @ketab_n

واللّغة تتنوّع لتقترن بأقوى ما يمكن باحتفاليّة الموهبة وابتكاريّة الضوء ولعب المزاج الفنّان وسخاء البذل ومتعة الاكتشاف وتوقّد الذّكاء وكهرباء الذهن هذه التي تسبق كلّ طاقة وتكون منبع كلّ كهرباء.

ولع بالهابننغ أو الحدث الاحتفاليّ، أعياد كهربائيّة وشعريّة نورانيّة، يقيمها، من أجل الفرح لا غير، كائنٌ وحيدٌ، بلا امرأة ولا أواصر حقيقيّة.

ثمانية وعشرون فصلاً صغيراً ومضغوطاً، كتابة متقشّفة يمسك كلّ فصل منها بخصلة أساسيّة أو بطور أساسيّ من ملحمة الفرد الاستثنائيّ هذه. والفصل الرّابع عشر هو تكثيف للبورتريت ندعو إلى قراءته وإعادة قراءته.

سلسلة بُروق: بروق الكهرباء، وبروق أحلام نيكولا تسلا، هذا المغترب العجيب، ولمعان مشاريعه الذي يخطف الألباب، وبروق كتابة إشنوز الساعية إلى احتواء هذا كلّه في غرابته وتميّزه وتسارُعه.

واقعيّة أو موضوعيّة تصبح سِحريّة دون أن تتوخّى ذلك. أسطورية واقعيّة دون أن يكون في ذلك تناقض ولا أسطرة مقصودة لِذاتها. مشاهد حقيقيّة أو عناصر سيرة

Twitter: @ketab_n

تبدو خياليّة لفرط تركيز الكاتب على ما يخرق فيها حدود العادة، وعناصر مبتكرة تأتي تامّة الالتصاق بالحقيقة البيوغرافية أو التاريخيّة.

مثلَ موريس رافيل وإميل زاتوبيك في كتابَي إشنوز الآخرين (يمكن الكلام هنا، ربّما، عن توائم ثلاثة)، ينير نيكولا تسلا عالمه ولا يفلح في تطويعه ولا حتّى في نيل حقوقه منه. غريب عن مطامح الرّجال، لا يجد في النهاية عزاءه إلاّ بين حمائم جاحدة تتسبّب له بحادث قد يكون مهّد إلى موته.

المُراجِع

كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

يتقدّم المؤلّف بالشّكر إلى مارغريت شيني Margaret Cheney ومارك بولتزوتّي Mark Polizzotti.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

1

كلُّ امرئ يريد أن يَعرف متى وُلد، ما وَجد إلى ذلك سبيلاً. فالمرء يُفضّل أن يكون على بيّنة من اللّحظة المرقَّمة التي انطلق منها، أين بدأت الأمور، مع الهواء، والضّوء، والأفق، واللّيالي والخيبات، والمتَع والأيّام. ذلك يَسمح بادئَ ذي بدء أن يكون له مَعْلَمٌ أوّل، قَيدٌ في وثيقة، رقمٌ صالح لأعياد الميلاد. وذلك يُعطي أيضاً نقطةَ انطلاقٍ فكرةٍ ذاتيّة صغيرة يَعلَم كلّ واحد أيضاً أهمّيتها: كالّتي يُقرّرها أغلبنا، يَقبَلون بحَملها معهم باستمرار، مقسّمةً إلى أرقام تكاد تكون غير مقروءة، وحتّى مُشِعّةً في بعض الأحيان، مُثْبَتةً على سوارٍ في المعصم الأيسر في الغالب دون الأيمن. إلّا أنّ هذه اللّحظةَ بالتدقيق، لن يَعرفها غريغور أبداً، فقد وُلد بين الحادية عشرة ليلاً والواحدة صباحاً. منتصفَ

Twitter: @ketab_n

الليل تحديداً أو قبْلَه بقليل، أو بعدَه بقليل، وليس بوسع أحد أن يُنْبِئه بها. بحيث أنّه سوف يَجهل طوال حياته أيَّ يوم، البارحةَ أو الغد، يُحَقّ له فيه الاحتفال بعيد ميلاده. مسألة الوقت هذه، رغم شيوعها، سوف يجعل منها إذن قضيّة شخصيّة. ولكنْ إذا لم يستطع أحد إعلامه بالسّاعة المحدَّدة التي جاء فيها إلى الدّنيا، فلِأنّ هذا الحدث وقع في ظروف مضطربة.

أوّلاً، قبل أن يُقتلَع من أمّه ببضع دقائق، وفيما كان الجميع منهمكين داخل البيت الكبير- صياح الأسياد، تصادم الخدم، تدافع الخادمات، خصام القابلات وأنّات النّفساء- اندلع إعصار شديد. أمطار مصحوبةٌ بالبَرَد غزيرةٌ جدّاً أثارت تفجُّراً هامداً، خافتاً، مهموساً، طاغياً كأنّما كان يريد أن يَفرِض صمتاً تَقْطعه هبّات هوائيّة قارضة. تَلتْ ذلك خاصّةً ريحٌ ثاقبة ذات قوّة قصوى حاولت قَلْبَ البيت. لم تُفلح في ذلك ولكنّها، بضغطها على نوافذَ جاحظةٍ انفجر زجاجُها واصطفقت أخشابُها وتطايرت ستائرُها إلى السّقف أو امتصّها الخارج، استولت على المكان لتُدمّر محتوياته وتُتيح للمطر إغراقَه.

Twitter: @ketab_n

تلك الرّيح جعلت كلّ شيء يتراقص، قلَبت الأثاث برَفع البُسُط، حَطّمت وبَعثرت تُحفَ الزّينة التي على المدافئ، دَوّرت الصُّلْبانَ والمصابيحَ المعلَّقة على الجُدْران، والأطُرَ التي رأتْ مناظرَها تَنقلب، وبورتريهاتها تنكفئ على رؤوسها. وهي إذْ تُحيل الثّريات أراجيحَ تنطفئ على إثْرها الشّموع، تَنفخ أيضاً على كلّ المصابيح.

هكذا جَرتْ ولادة غريغور في ظلمة صاخبة إلى أنْ هَلّ برق عظيم، سميكٌ وذو شجون، عمودٌ جامحٌ من هواء محترِق في شكل شجرة، وجذوعها، أو في شكلِ براثنِ طيرٍ كاسر، أنار ولادتَه، ثم غطّى الرّعدُ صيحته الأولى فيما كانت الصّاعقة تُلهِب الغابةَ في الجوار. كلُّ شيء يَخضع لهذه النقطة وهي أنّ النّاس وسط الفوضى العارمة لا تَستغِلّ شُعلةَ البرقِ الساطعةَ المذهِلة، ووَضْحَ نهارِها الآنيَّ ليتأكّدوا من السّاعة بالتّدقيق- ولو أنّ الساعاتِ على أيّة حال، بما تُغذّيه من خلافاتٍ قديمة، ما عادت تتّفق في ما بينها من زمن طويل.

ولادةٌ خارجَ الزّمن إذنْ، وخارجَ الضّوء، لأنّ النّاس لم يكونوا يَستضيئون إلّا هكذا في تلك الفترة، بالشّمع

Twitter: @ketab_n

والزّيت، ولم يَعرفوا بَعدُ التّيّار الكهربائيّ. هذا الذي نَملك استعماله اليوم تباطأ في فرض نفسِه على الأعراف والتقاليد، وكان الوقت قد حان حقّاً لأنْ يُهتمَّ به. وكأنّ الأمر يَتعلّق بتسوية قضيّةٍ شخصيّة أخرى، فإنّ غريغور هو الذي سيتكفّل به، وهو الذي سيكون مَنوطاً به وضعه في نِصابه.

Twitter: @ketab_n

2

وبما أنّ مِثلَ هذا المجيء إلى الدّنيا قد يجعل المرء موتوراً قليلاً، فإنّ طَبْع غريغور سرعان ما ارتسم، وكشف مبكّراً عن شخص منفِّر: جَفول، متعالٍ، فظّ، سيّئ الظنّ. جلب الانتباه سريعاً بنزوات، وفوراتِ غضب، وانكفاء على النّفس، وهروب من البيت ومبادرات مرتجَلة، وتهديم، وتهشيم أشياء، وتخريب وأضرار أخرى. وأغلب الظنّ أنّه من أجل تسوية مسألة الوقت تلك التي يوليها في الظّاهر عناية خاصّة، بادر حالما أمكنه ذلك إلى تفكيك السّاعات الجداريّة والسّاعات الدّقّاقة وساعات البيت- ليُحاول تَعبئتَها فيما بَعدُ بالتّأكيد، ولكنّه لاحظ عندئذ في حَنَق أنّه إذا كانت المرحلة الأولى لتلك العمليّات تَعمل دائماً، فإنّ التّوفيق في المرحلة الثّانية نادرُ الحدوث.

Twitter: @ketab_n

إلى ذلك تَبدّى أيضاً شديدَ التّأثّر، عصبيَّ المزاج، هشَّ البنية النفسيّة، وخاصّةً ذا حساسيّةٍ غيرِ طبيعيّة تُجاهَ الأصوات، تُرْبكُه كلّ أنواع الضّجيج، من ضوضاءَ أو تَردّداتٍ أو أصداء: حتّى وإنْ كانت قصيّة، لا يُدرِكها سَمْعُ أحدٍ غيرِه، فإنّها يمكن أن تُغرقه في هيَجان مزعج. كما أنّه نَهْب لأزَمات حادّة يَستحضر خلالها حتّى وهو تحتَ سماء صافية بَرْقَ مولدِه، فتَستبدّ به نوبة انبهار تَجعله يبدو أعمى، ما يُثير فزع عائلته وهزّاتِ رأسٍ حائرةً لأطبّاء يُستدعَون في الحال. على هذا الأساس المضطرب، نَما بسرعة غير عاديّة: سرعان ما صار مديدَ القامة، وسرعان ما صار أطولَ قامةً من الجميع.

هذا التطوّرُ المضطرب جرى في مكانٍ ما بجنوب شرق أوروبا، بعيدٍ عن كلّ شيء عدا البحر الأدرياتيكيّ، في قرية معزولة، محصورة بين سلسلتين جبليّتين دون لجوء ممكن إلى أطبّاءِ روحٍ مُجاورين، حيث لا يجد غريغور الرّاحة أحياناً إلّا في التطلّع إلى الطّيور لساعات. ولكنْ إذا كانت اضطرابات الطّبْع تلك تُوَلّد في البداية خِشيةَ تَجمُّعِها في جنون مؤسف، فإنّ أقاربه يُلاحظون أنّ ذكاءه

Twitter: @ketab_n

ينمو في نسق أسرع من نموّ بنيته الجسديّة.

فبعد أن تَعلّم نصف دستة من اللّغات في خمس دقائق، وخَلَص بغير انتباه من مسيرته المدرسيّة بالقفز على الفصول بالتّناوب، وخاصّةً بعد أنْ حَلّ نهائيّاً مشكلةَ السّاعات- التي لن يَلبَث أن يَفُكّكها ويُجَمِّعها في لحظة، معصوب العينين، لتُعطيَ كلُّها بعد ذلك على الدّوام الوقتَ الصّحيح في أبسط جزئيّة من الثانية[1]-، حَصَل على المرتبة الأولى في أوّل مدرسة متعدِّدة الفنون والعلوم صادَفتْه، بعيداً عن قريته، حيث التهَمَ في لمح البصر الرّياضيّات، والفيزياء، والميكانيكا، والكيمياء، علوماً صارت تسمح له منذئذٍ بوضع تصوُّرات لأشياء طريفة من شتّى الأنواع، مُظهِراً موهبةً فريدة في هذا الباب. فذاكرتُه كانت في دقّة التّصوير الشّمسيّ الذي ابتُكِرَ مؤخّراً، كما أنّ غريغور، بوجه خاصّ، كان يُظهر موهبةَ تَمثُّلِ الأشياء داخليّاً كأنّها وُجدت قبل وجودها الفعليّ، إذ يراها في دقّةِ ثلاثيّةِ الأبعاد حتّى أنّه، في حركة اختراعه، لا يحتاج أبداً إلى تخطيط، أو

(1) استعمل الكاتب مصطلح nanoseconde أي جزء من بليون من الثّانية (كلّ الحواشي من وضع المترجم).

Twitter: @ketab_n

رسم بيانيّ، أو تصميم تمهيديّ ولا إلى تجارب مُسبَقة. ما يتخيّله يَتمّ اعتبارُه فوراً حقيقيّاً، والخطر الوحيد الذي يَتعرّض له وربّما سوف يَتعرّض له على الدّوام، خَلْطُه بين الواقعيّ وما يُصمِّمه.

وبما أنّه ليس لديه وقت يضيّعه، فإنّ العُدّة التي يَتصوّرها لا تُفضي إلى الأشياء المُلحَقة والمبتذَلة ولا إلى الجزئيّ. فغريغور لن يكون أبداً مِنْ نوع مَنْ يُطوّر قُفْلاً، أو يُحسّن فتّاحة عُلب أو يبتكر ولّاعةَ غاز. عندما تَهِلّ عليه الأفكار، فإنّها تُطِلّ مباشرةً من عَلٍ، من عُلوٍّ شاهق، في جسامة الكون الشّاسع وخدمةً للصّالح الكونيّ. من أولَيات تلك الأفكار أنبوبٌ يوضَع في عمق المحيط الأطلسيّ ليَسمح، من بين خدمات أخرى، بتبادل سريع للبريد بين أمريكا وأوروبا. رسَم غريغور في البداية تخطيطاتٍ مفصّلةً عن نظام الضخّ، الذي ستكون مهمّته إرسال الماء تحت الضّغط إلى هذه القناة لكي يَدفع الأوعية الكرويّة التي تحوي الرّسائل. ولكنّ مسألة المقاومة النّاجمة عن احتكاك الماء في الأنبوب، وهي مقاومة بالغة القوّة، جعلته يتخلّى عن هذا المشروع، لصالح مشروع آخر لا

Twitter: @ketab_n

يَقِلّ عنه طموحاً.

ويتمثّل في بناء حَلْقة عظيمة تُحيط بكوكب الأرض فوق خطّ الاستواء وتدور بحُرّيّة بنفس سرعة دوَران الأرض. فتَسمح قوّة الارتكاس بعدئذ بتثبيت تلك الحَلْقة، ما يُتيح لنا جميعاً أن نَركب داخلها ونطوف حول الأرض بسرعة ألف وستّمائة كيلومتر في السّاعة ونحن نتمتّع بالمشاهد الطبيعيّة، وبالأحرى هي التي تتقدّم فوقنا: ونحن جالسون على أرائك مريحة- يُفكّر غريغور بشرود، ولو بدقّة، في وضع تلاؤميتّها[1] وتَقانةَ شُغلِها-، وهكذا نَقوم بدورةٍ في اليوم.

كما نرى، هي ليست مشاريع مُقتضَبةً لأنّ غريغور لا يناسبه غيرُ التّصدّي للأبعاد الشّاسعة. من بينها، تولّدت لديه مبكّراً قناعة بصُنع شيء ما بواسطة قوّة المدّ المحرِّكة، وتحرّكات القشرة الأرضيّة، والإشعاع الشّمسيّ، عناصرُ كهذه- أو، لِمَ لا تكون، من أجل اكتساب الخبرة، عن طريق شلّالات نياغارا التي رأى صوراً منها في بطون

(1) ديزاين Design: نظام غايته التّلاؤم الجماليّ في البيئة الإنسانيّة، بدءاً بالأدوات الرّائجة وانتهاءً بتصميم المعالم وتنظيم المدن.

Twitter: @ketab_n

الكتب وبَدَت له مناسِبةً لسُلَّمه. أجل، نياغارا. نياغارا، ستكون عمليّة جيّدة.

في انتظار ذلك، ذهب غريغور، ودبلوماتُه المدعوكةُ في جيبه، للعمل في الغرب، في بعض المدن الكبرى بأوروبا الغربيّة، حيث ستَجد كفاءاتُه، كذلك أكّدوا له، تربةً عضويّةً أخْصبَ لانطلاقها. هناك شغَلَ عدّة وظائف، مهندس، خبير، مستشار، دون أن تُرضيه أيٌّ منها، ولكي يَشغَل وقته بين ساعات المكتب، صنع أوّل ماكنة جدّيّة. وهي عبارة عن محرّك ذي حثّ[1] وتيّارٍ متناوب من طراز جديد، قَدّمه بكبريائه المعهودة إلى زملائه، فمَطُّوا شفاههم في البداية. وبعد أن بَلعوا غَيرتَهم، أقرّوا أنّ هذه الآلة قد تُغيّر كلّ شيء، فاعترفوا بخطئهم وتجاوزوا تبرّمَهم ونصحوه بألّا يقف عند هذا الحدّ: لعلّ من الأفضل أنْ يَذهب باتّجاه غربٍ أبْعدَ حيث تربةٌ عضويّة جديدة، أكثرُ غنىً وسمنة، قد تُتيح لأفكاره أنْ تتفتّق على وسعها. يمكن أنْ نفترض أنّ تلك النصائح ليست منزَّهة تماماً وأنّ

(1) Induction: نقل القوّة الكهربائيّة أو المغناطيسيّة إلى جسم آخر عن طريق تيّار أو مغناطيس من غير اتّصال مباشر.

Twitter: @ketab_n

الزّملاء إنّما كانوا يَرَون فيها وسيلة للتّخلّص من غريغور، إذ هو لم يَكتفِ بكَونه ثقيلَ الظّل، بل زاد على ذلك بأنْ غَدا مُضجِراً.

ذلك أيضاً أنّ غريغور، حتّى بَعد أنْ تجاوز المرحلة التي يكون فيها النّموّ قد أدركه الإعياء، كان لا يزال يكبر.

Twitter: @ketab_n

3

في الثّامنة والعشرين من العمر، وبقامة باتت تَبلغ مِتريْن، سافر غريغور على متن باخرة تَقصد إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة. نزل على رصيف بنيويورك مُزوّداً بجواز سفر وقبّعة دربي[1]، وحقيبة تحوي بعض ثيابه، وأخرى تحوي بعض الأدوات، وعشرين دولاراً مطويّة في جيب، ورسالةَ توصيةٍ لتوماس إديسون[2] مصرورةً في جيب آخر.

إديسون مُخترع ثريّ وذو نفوذ، يملك شركة «جنرال

(1) Chapeau melon (حرفيّاً قبّعة في شكل بطيخة) أو Derby hat لدى الإنكليز والأمريكان، وهي قبّعة من اللّبد ذات قوقعة مستديرة ومنتفخة وحاشية صغيرة مثنيّة إلى فوق.

(2) Thomas Edison (1847–1931) مخترع ورجل أعمال أمريكيّ، من أشهر المخترعين في العالم.

Twitter: @ketab_n

إلكتريك»، صار مشهوراً عالميّاً إلى درجة أنّه احتلّ، في حياته، شخصيّة محوريّة في رواية لفيلييه دو ليل آدم[1] نُشرت في ذلك الوقت بباريس في حلقات متسلسلة بمجلة «لافي موديرن»[2]. فهو يملك ألفاً وثلاثاً وتسعين براءةَ اختراع- لا يتورّع في نسبةِ عددٍ ممّا أنجزه غيرُه إليه-، يَنسب إلى نفسه منها على وجه الخصوص التّلفزيون والسّينما والتّسجيل الصّوتيّ، دون ذكر الكهرباء التي ستشغلنا هنا بقَدْر غير قليل.

عندما ابتكر توماس إديسون في البداية، بعد أشياء كثيرة أخرى، المصباح الكهربائيّ المتوهّج، وَضع منظومة توزيع لشحن تلك المصابيح قبل أن يُدشّن، بعد ذلك بعامين، أوّل محطّة لتوليد الكهرباء في العالم. ولمّا وصل غريغور، كانت تزوّد تسعةً وخمسين زبوناً يَقطنون في مانهاتن، في الدّائرة المحاذية مباشرةً لمخبر إديسون، بتيّار

(1) Auguste de Villiers de L'Isle-Adam (1838-1889) كاتب فرنسيّ ألّف في القصّة والرّواية والشّعر والمسرح، ومهّد لظهور التيّار الرّمزيّ.

(2) La vie moderne أو «الحياة العصريّة» (1879-1883) مجلّة أدبيّة فرنسيّة تابعة لجورج شربنتييه (1846-1905) ناشر أعمال رموز المذهب الطبيعيّ كزولا وفلوبير وموباسان.

Twitter: @ketab_n

متواصل بقوّة 110 فولت[1]. ولكنّ ذلك في نظره لن يكون سوى بداية: فقد طوّر المنظومة منذ وقت قريب بإنشاء شبكة تُزوّد مختلف المعامل والمصانع وكذلك المسارح المنتشرة في نيويورك. كلّ ذلك لا يتطلّب إلّا أنْ يزيد في حجم المشروع ولكنّه يستوجب أموالاً واستثمارات. غير أنّ المموّلين فيما يبدو لا يتبيّنون بَعدُ كما ينبغي كلّ مزايا هذه الكهرباء- باستثناء أوفرهم ثراءً، رجل يسمّى جون بيربونت مورغان. رهيب ومَهيب بسبب نفوذه وطبعه الفظّ، وكذلك بسبب بُعد نظره: فهو يؤْثر ألّا يقول شيئاً في انتظار ساعته، إذ أدرك في الحال أنّه، منذ أنِ اخترع أرخميدس البُرغيّ، لم يوجد في تاريخ العلوم برمّته شيء أفضلُ من هذه الطّاقة.

كان غريغور وسيماً، بالرّغم من قامته العملاقة، مشيق القوام، أنيقاً، ذا مظهر واثق، ووجه طويل يعبره شاربان فخمان، ولكنّه كان في حال من الخجل لدى وصوله عند إديسون الذي لم يكن مظهره يوحي بالرّهبة- وربّما بسببٍ

(1) فولت أو فُلْط، نسبة إلى الفيزيائي الإيطالي ألسّاندرو فولتا Alessandro Volta (1745–1827) ويقصد بها وحدة القوّة المحرّكة الكهربائيّة.

Twitter: @ketab_n

من ذلك. فتوماس إديسون رجل قبيح، محنيّ الظهر، أخرق وبغيض، يجرّ رجليه حين يمشي، شارد النظرات، ملفوف على الدّوام في مآزر من القطن المائل إلى اللّون الرّمليّ الرّديء أو البنّيّ الرّديء، كانت تخيطها له زوجته ويزرّرها حتى الذّقن. أضف إلى ذلك أنّه أصمّ منذ سنّ الثالثة عشرة نتيجة حمّى قرمزيّة عنيدة، عاهة لم تمنعه من أن يتخيّل ويصنع، قبل سبع سنوات، أوّل فونوغراف.

زد على ذلك أنّه، عندما حضر لديه غريغور، كان مزاجه عكراً: منذ بضعة أيّام، تكاثرت الحوادث في تجهيزاته التي تعمل بالتّيّار المتواصل، سواء في مقرّ عدّة شركات أو لدى الخواصّ. وبعد أن ذهب كلّ مهندسيه يصلحون على وجه السّرعة تجهيزَ بيتِ عائلة فندربيلت، في الشّارع الخامس، ها أنّ شركة ملاحة تتّصل به للتّوّ لتُعلِمه أنّ مُولّدات الدّينامو بسفينة أوريغون، التي زوّدتها بها شركته، أصابها عطب هي أيضاً: الباخرة مضطرّة أن تبقى على الرّصيف، والشّركة تَخسر كلّ يوم أموالاً مُبالغاً فيها وتُهدّد برفع قضيّة ضدّ إديسون. لم يبق لإديسون، الذي يعادل بُخلُه فظاظتَه، مستخدمون على ذمّته حين ناوله غريغور في حياءٍ

Twitter: @ketab_n

رسالتَه، التي تَعرض خصاله ككهربائيّ. صدفةً ومن غير أمل، ودون أن يلقي إديسون على الشابّ نظرة، ما كاد يقرأ الورقة حتّى أرسله يعاين ما يجري على متن الأوريغون.

وجد غريغور في البداية بعض الصّعوبة في العثور على وجهة الميناء، ثمّ على الرّصيف الذي رَسَت به السّفينة، رصيف تحلّق فوقه نوارس جَلبت أنظار غريغور، فهو يهتمّ دائماً بكلّ ما يطير، خصوصاً، ولا ندري لماذا، الحمام واليمام والترغل[1] وما لفّ لفّها. ولكنْ حسناً، حتى طائر زُمّج الماء لا يقلّ عنها أهمية. بعد أن تابع تحليقها وغوصها في الماء برهة، دلّه وكيل شحنٍ خشن إلى مسلك حجرة الآلات حيث انغلق وحده مع أدواته. ولمّا عاد في صبيحة الغد إلى مكاتب إديسون، قبِل هذا تشغيلَه مساعداً دون أن ينبِس بلفظٍ مقابلَ أجرةِ ساعٍ بفندق.

(1) Tourterelle: جنس طير من فصيلة الحماميّات.

Twitter: @ketab_n

4

مساعد، من وجهة نظر إديسون، يعني رجلاً صالحاً لكلّ شيء، رجل عملٍ شاقّ قبل أن يكون رجل ثقة، وسيتمثّل دور غريغور خاصّةً في طاعة مختلف الأوامر، أعمال خدم وحتى أعمال منزليّة، دون حقّ مخصوص في الكلام، مع تأمين الدّوام في الوقت نفسه لتدارُك الحوادث التي ما انفكّت تتزايد وتتبدّى في التّجهيزات التي توفّرها شركة جنرال إلكتريك. استمرار تلك الأعطاب، في ذهن غريغور، بدأ يوحي ثُمّ ينمّي الشكّ في مبدأ تجهيزات إديسون نفسِه، أي التّيّار المتواصل.

هذا التّيّار المتواصل[1]، لنُحاولْ فهْمَه. هو تيّار- بمعنى

(1) أو التّيّار المستمرّ Courant continu، يقابله التّيّار المتناوب أو المتردّد Courant alternatif.

Twitter: @ketab_n

تنقّل الكهرباء- لا تتنقّل فيه الإلكترونات باستمرار إلّا في اتّجاه واحد. ومولّداته الدّينامو تُنتج جُهداً[1] ضعيفاً نسبيّاً، وهو ما يتطلّب شدّة تيّار[2] هامّة. من هنا تأتي ضرورة استعمال كبْلات[3] غليظة مع ما يتبع ذلك من خسائر جسيمة، لأنّ مقاومة تلك الكبْلات تُحوّل جزءاً من التّيّار إلى حرارة. والحرارة لا تلبث أن تقود إلى شرارة، التهاب، مصيبة، وكلاء تأمينات ورجال مطافئ، وهذا أمر مزعج. ثمّ إنّ التّيّار المتواصل من ناحية أخرى لا يمكن أن يُنقَل أكثر من ثلاثة كيلومترات في هذه الكَبْلات، غير المؤهّلة لتحمّل الضّغوط المرتفعة الضّروريّة للإمدادات البعيدة. فيُضطرّ النّاس، شأنَ جيران إديسون، إلى الإقامة قريباً من محطّة مركزيّة للانتفاع بالكهرباء. زد على ذلك، وبناءً عليه، يعاني هذا النظام من إخلالات كبرى: حرائق منتظِمة، أعطاب مزمِنة وحوادث متواتِرة: شكاوى، قضايا،

(1) الجُهد Tension هو فرق القوّة الدّافقة.

(2) شدّة التّيّار Intensité هي كمّيّة الكهرباء المارّة بموصل خلال وحدة زمنيّة.

(3) جمع «كبْل»، من الإنجليزيةcable، ويتكوّن الكبْل أو الكابل الكهربائيّ من سلكين أو عدّة أسلاك مضفورة في إضمامة واحدة وتخدم في نقل التيّار الكهربائيّ.

Twitter: @ketab_n

تعويضات. وأيّاً كان رأي توماس إديسون، فالأمور لا تسير كما ينبغي.

كان غريغور قد تنبّه أثناء دراسته إلى أنّ الأمور لا تسير كما ينبغي حينما لاحظ آلة من النوع نفسه قدّمها له أستاذ الفيزياء. ولمّا كانت تُصدر شرراً كثيراً، فقد اقترح عليه في استحياء تعويض التّيّار المتواصل بتيّار متناوب، أي تيّار يُغيّر وجهته بانتظام وعلى مراحل- أفلن يسير بشكل أفضل؟ هزّ المدرّس كتفيه مبيّناً أنّ مثل هذه الفكرة تقوم على الحركة الدّائمة، وبالتّالي على المستحيل، ولم يُلِحَّ غريغور.

منذ بدأ غريغور بالعمل في شركة جنرال إلكتريك، أثار مرّة أو اثنتين فرضيّة التّيّار المتناوب هذه، ولكن أمام فورة إديسون لذِكرها وكأنّه أتى على ذكر المسيح الدّجّال، لم يلحّ غريغور أيضاً. في انتظار ما يجدّ، ورغم أنّه كسب تقدير رئيس عمله بتوصُّله إلى حلّ عدّة مشاكل تقنيّة، والعمل سبعة أيّام في الأسبوع وثماني عشرة ساعة في اليوم، تولّد في ذهن إديسون المرتاب شكّ: أن يَذكر فَردٌ في مثل هذه الموهبة والمواظبة حلّاً آخر غير التّيّار المتواصل

Twitter: @ketab_n

كان من شأنه أن يُفتِّح ريبته ويطوّرها. وبعد أن وصف غريغور لإديسون كيف يمكن أن يُحسّن مردود مُولِّده، قال له رئيس العمل: حسناً، دونك وإيّاه! لك خمسون ألف دولار لو تُفلح. وأقبل غريغور على ذلك طوال ستّة أشهر كان المولّد إثرها فعلاً في صحّة جيّدة: أسرع غريغور يُخبر مُشغِّلَه.

حسناً، هتف إديسون المتهالك على أريكته، هذا حسنٌ، حسنٌ جدّاً. صحيح أنّك مسرور، سأل غريغور في ضيق. مفتون، صرّح إديسون، مبتهج. بناءً عليه، غامر غريغور بالقول دون أن يتمكّن من إنهاء جملته. بناءً على ماذا، قاطعه إديسون الذي تقبّض وجهه. بصراحة، تشجّعَ غريغور، يبدو لي حسبما فهمت أنّ خمسين ألف دولار... غريغور، قاطعه إديسون وهو يلوي رجليه الموضوعتين على المكتب، ألا تفهم الدّعابة الأمريكيّة أم ماذا؟

هذه المرّة، نهض غريغور، واتّجه نحو المشجب فسحب قبّعته، ثُمّ نحو الباب دون أن يتكلّم أو يُغلق الباب خلفه، ثُمّ إلى قسم الحسابات ليتسلّم رصيده، ثُمّ إلى الشّارع وهو يتساءل ماذا سيفعل بعد هذه العمليّة الدّنيئة.

Twitter: @ketab_n

المسألة في الواقع بسيطة، سيحاول أن يطوّر وحده فكرته عن التّيّار المتناوب. خلال الأعوام الثّلاثة التي قضّاها عند إديسون، كان قد لفت الانتباه سريعاً بجودة إتقانه واحترام مواعيده، وجدّة حلوله، وما لبثت سمعته كمهندس أن تجاوزت في وقت قصير حدود شركة جنرال إلكتريك. قصد غريغور مقرّ مجموعة من رجال المال وعرض عليهم تصوّراته. وصفُ المنظومة، نقدُها، سُبل تحسينها، أجَلٌ محدَّد وموازَنة مُفصّلة.

والنّتيجة أنّ الأمور سارت على أحسن ما يرام. بفضل موهبتِه في اللّغات التي ظهرت مبكّراً وتمرّسِه بالإنكليزية، أتاحت تلك الأعوام الأمريكيّة الأولى لغريغور أن يكتسب بسرعة إلماماً يكاد يكون تامّاً بلسان أهل البلاد، علاوة على فصاحة طبيعيّة، وموهبة في إخراج الكلام مخرَجاً حسناً، واعتقاد راسخ ما فتئت كلُّها تفيده. أعاده رجال الأعمال إليهم في غد اليوم التالي، وأعربوا له عن مدى اهتمامهم، واقترحوا عليه إنشاء شركة باسمه، شركة غريغور للمصابيح الكهربائيّة[1]، يستطيع بداخلها أنْ

(1) Gregor Electric Light Company.

Twitter: @ketab_n

يطوّر بحوثه. بطبيعة الحال، سوف يشكّلون، بتَمويلها، أغلبيّة داخلَها، أنت تعرف معنى ذلك، ولكنْ يُفترض أنْ يَضخّ غريغور أيضاً نصيباً ليُسوّغ اسم الشّركة ونظامها القانونيّ الجديد. أقرّ غريغور بأنّ ذلك أمرٌ طبيعيّ وتنازل دفعة واحدة عن كلّ المال الذي ادّخره خلال أعوام العمل الثّلاثة في شركة جنرال إلكتريك: كلّ المال، يعني نزراً قليلاً، ولكنْ كلُّه على أيّة حال. وبما أنّ ذلك الكلَّ لم يكن كافياً، ها هو يقترض بجسارة.

والنّتيجة أنّ الأمور بعد ذلك سارت سريعاً أيضاً. فما إن ابتكر غريغور مصباحاً ذا قوس حصل في الحال على براءة اختراع، ولقي رواجاً سريعاً في السّوق، وما إن استرجع شركاؤه استثمارهم مع فائض مقبول، حتّى ألفى نفسه مفصولاً من شركته التي استحوذ عليها الشّركاء، وهم سعداء باحتساء هذه الشّمبانيا الجديدة، أمّا هو فقد أفلس تماماً. وهكذا وجد نفسه في الشّارع، حفّاراً، وعاملاً، وحمّالاً مُثقَلاً بالدّيون في حظائر البناء، طوال أربع سنين.

Twitter: @ketab_n

5

هي ضربة لئيمة أخرى، ولكنِ حانت ساعة الاستراحة، وغريغور لا يفارق قبّعته الدّربي في الصّيف كما في الشّتاء وفي جميع الحظائر. ونحن بالمناسبة في فصل الشّتاء، ولكي ندفأ، نأكل حبّات بطاطا ولحماً قديداً ساخناً. القديد ملفوف في ورق شحوم ترك الدّهنُ على صفحته أثراً يدلّ بالتّحديد على جهة أوروبا الشرقيّة التي ينحدر منها غريغور، والتي يستعيد عليها، وهو يمضغ، بفضل نُتَف اللّحم، سلسلتي الجبال اللتين تؤطّران قريته، مؤشّراً عليها بكُرَيّة من لبّ الخبز. يُري بذلك، في غياب تاريخ محدَّد، مسقطَ رأسه لرئيس عمّالٍ ألِفَه بعض الألفة- وإنْ كان غريغور لا يأتي شيئاً يولِّد ذلك الإحساس.

نحن جالسون على أكياس إسمنت، فوق صناديق،

Twitter: @ketab_n

قرب نار من أخشاب ملطّخة بالجبس وسط الحظيرة، في شارع واسع ببروكلين، في ظلّ عِصيّ الرّفوش والفؤوس المغروسة في كُدْس من الرّمل. مَنْوَرٌ مشبّك يَفصل الحظيرة عن ذلك الشّارع الموحل والصّاخب حيث وشيش الأصوات يمرّ فوق رؤوسنا وحيث تتعجّل حركة وفيرة من المارّة، ورجال يمتطون الخيول، وعربات تجرّها ثيران، وعربات تُجَرّ باليد، وحافلات مجرورة بالخيل، عربات يَعُدّها غريغور بعناية ولو بآليّة، الواحدة تلو الأخرى وبحسب أصنافها، مثلما اعتاد أن يَعُدّ كلّ ما يظهر. تتنقّل في الشارع أيضاً عربات الترام الجديدة ذات المحرّك الكهربائيّ التي لا تفتأ تتعطّل، هذا إن لم تنقلب، فتروّع الركّاب والمارّة على حدّ سواء، ويشتكي منها الجميع.

لن تُفلح أبداً، عربات الترام تلك، يعلّق رئيس العمّال الجالس جنب غريغور. هي ليست مطابقة للشّوارع. بلى، يقول غريغور، حتماً، سوف تتطابق في يوم من الأيّام. الأمر متعلّق بنظام الطّاقة، هذا هو الذي لا يلائم، إنّه التّيّار المتواصل. وما أدراك أنت بهذا، يسأل رئيس العمّال. ذلك أنّي مهندس، لو تدري، يردّ غريغور بجفاء، تلك

Twitter: @ketab_n

مهنتي الحقيقيّة. الكهرباء.

ويطفق، بجمل مقتضَبة، وواضحة بشكل عجيب، في شرح مساوئ التّيّار المتواصل، فيما التّيّار المتناوب يسمح باستعمال محوّلات من شأنها أن ترفّع الجُهدَ أو تخفّضه. بفضل تلك المحوّلات، يمكن أن نُرسل آلافاً من الفولتات على مسافة مئات الكيلومترات، بقدر ما نشاء، بواسطة كبْلات ذات جُهد عالٍ. أمبيريّة[1] ضعيفة، وبالتالي خسائرها قليلة.

نظر إليه الرّجل نظرة استغراب في البداية، وهو موزَّع بين الشّعور الغريب بفهم لغة أجنبيّة بيُسر، والارتياب من أن يكون محدّثه يهذي، ولكنْ، مع استرسال غريغور في تفصيل قولِه، تناقصت نظرة رئيس العمّال ريبةً.

في آخر المطاف، ختمَ غريغور، محوّلات أخرى توضَع لدى المتلقّين سوف تقلّل الجُهد بالنسبة إلى المستخدم الختاميّ. بذلك يمكن توزيع التّيّار على مسافات طويلة: لا حاجة بعدئذ للسّكن قرب محطّة للحصول على الكهرباء. لأجل هذا يكون التّيّار المتناوب أفضل. سوف

(1) Ampérage : قوّة التّيّار الكهربائيّ مَقيسة بالأمبير.

Twitter: @ketab_n

يُكلّف أقلّ ويسير بشكل أفضل. نفس الشّيء بالنسبة إلى الترام. ولكنّي أزعجك بهذه الحكايات.

كلّا، إطلاقاً، قال رئيس العمّال، إطلاقاً. لماذا، سأل غريغور، هل هذا يهمّك؟ ليس ذاك، قال رئيس العمّال، ولكنْ أنا أعرف، ربّما، شخصاً. هو صديق لي.

Twitter: @ketab_n

6

صديق رئيس العمّال هو على وجه الخصوص شخص يَعرف شخصاً آخر وبالأحرى هو أحد مستخدَميه، لأنّه يمارس عنده مهنة كبيرِ خدم. غير أنّ كبير الخدم، إذا كان كبيرَ خدمٍ جيّداً، يمكن أن يصبح مؤتمَناً نفاتحه في مواضيع أخرى غير إدارة البيت وشؤونه، ونُشهِده بتلقائيّة على الهموم الحميمة، زوجيّة كانت أم مهنيّة. وهو ما ينطبق فعلاً على مستخدِم كبيرِ الخدم هذا، إذ يَشغَل وظيفة هامّة في «ويسترن يونيون تلغراف كومباني»[1]، وهي شركة يديرها المقاول جورج وستنغهاوس منافِسةٌ بصورة عرَضيّة لشركة إديسون جنرال إلكتريك.

استعادت ذاكرة رئيس العمّال بعض أحاديث الحانة

(1) Western Union Telegraph Company شركة الاتّحاد الغربي للتلغراف.

Twitter: @ketab_n

مع صديقه كبير الخدم كان حدّثه خلالها، بين قدحين، عن رئيس عمله الذي جعله بمرور الوقت مؤتمناً على أسراره. بعد التّبادل ذي الصّبغة المنزليّة، وبعض الإيحاءات المهموسة عن شكوك تثيرها في نفسه زوجته الشّابّة، أفضى له مستخدِمُه ببعض ما يَعترض ويسترن يونيون من مشاكل من بينها، علاوةً على توزيع الغاز والهاتف، مشكلة الكهرباء، شُغْلِ جورج وستنغهاوس الشّاغل. وفي هذا الصّدد يتذكّر رئيس العمّال أنّ الكلمتين اللتين نطق بهما غريغور، تيّار متناوب، ورد ذكرهما فعلاً أثناء الحديث. إن شئت، قال رئيس العمّال، يمكن أن أفاتح هذا الصّديق في الموضوع. ماذا نخسر؟

لم يعترض غريغور على مثل هذه المبادَرة، واستغرقت المعلومة بضعة أيّام قبل أن تصل إلى المستخدِم عن طريق كبير خدمِه، ثُمّ لا ندري كيف وصلت إلى وستنغهاوس نفسِه حيث عبّر عن رغبته في معرفة المزيد. في عمق غرفته التّافهة التي استأجرها مؤثّثة، أحسّ غريغور، بعد أن تمّ إعلامه، بالحرج من هذا الاستدعاء المحدَّد في آخر الصباح. ليس لأنّه يشكّ في نفسه وإنّما لأنّه كان مُحرَجاً

Twitter: @ketab_n

من جهة مظهره: بما أنّ هذا الموعد يتطلّب التحلّي بهندام غير الذي يكون فيه بالورشة، فقد نزل لشراء كُمّين وياقة مموّهة[1] جديدة قبل أن يُلمّع حذاءه ويفرك بالفرشاة طويلاً بذلته الوحيدة وكذلك قبّعته الدّربي.

مقرّ ويسترن يونيون: بعد ردهة تليها عدّة ردهات كيلومتريّة أخرى- ثريّات، رخام، بُسُط، تماثيل، لوحات، بُسط جداريّة- يتخلّلها بوّابون، ويستلزم عبورها وقتاً طويلاً، وفي «ترافلينغ»[2] أماميّ بطيء جدّاً، ظهر أخيراً جورج وستنغهاوس شخصيّاً، جالساً خلف مكتب قوطيّ في عمق قاعة بسعة ملعب. رجل ذو خدّين متهدّلين، فارع وضخم بشكل بارز، خالٍ من منطقة وسيطة بين الرّأس والكتفين، مُصفَّح بسلاسل ساعة وشاربَي فيلِ بحر، مقتصِد في كلامه. وبنظرة زرقاء باردة يلقي بها من عليائه، إذ لا وقت لديه يضيّعه، مدّ يده الغليظة المؤنَّقة،

(1) Faux–col: ياقة نقّالة يمكن قلبها إذا بليت، وكانت تستعمل بكثرة حتّى مطلع القرن العشرين. وتوضع تحت السّترة، وكذلك الكُمّان، لتوحي مجتمعة بوجود قميص تحت السّترة.

(2) Travelling: بالإنكليزيّة في الأصل وتعني تحريك الكاميرا خلال التّصوير إمّا بموازاة الشّخص المتحرّك أو للاقتراب منه والابتعاد عنه والطّواف حوله لإظهار مختلف ملامحه.

Twitter: @ketab_n

المثقّلة بخاتَم شعارات[1] من المعدن المسبوك يشير على غريغور بأريكة.

وهو جالس في شكل زاوية قائمة على حافة المقعد، ويداه متكتّفتان على ركبتيه دون أن يلجأ إلى المتّكأين أو المسند، ذكَر غريغور على عجل وبإيجاز أعماله السّابقة- الحقل المغناطيسيّ الدّوّار، تصميم ماكنة غير متزامنة- ولكنْ، لمجرّد ذِكرها فقط، والحديث عنها عرَضاً قبل أن يَستعرض أفكاره عن التّيّار المتناوب. هذا هو الموضوع الوحيد الذي تبسّط فيه، دون أن يكلّف نفسه عناء مقارنته بالمنظومة المتواصلة التي يملك إديسون حقّ التصرّف فيها بلا منازع. وهو وإنْ لم يُعِد أكثر ممّا قال لرئيس العمّال، وإنْ عرَف كيف يُعمّقه أمام مهندس، فقد عرَض حُججاً وحسابات بطريقة فيها من الحسم ما جعله يُقبَل على سبيل التجربة، عقب لقاء دام نصف ساعة، في منصب مستشار. وسوف يمنحه وستنغهاوس الوسائل الكفيلة بتطوير منظومته: مختبر، مساعدان، معدّات لازمة وراتب

(1) Chevalière: خاتم كبير القفص تُنقش أو تُحفَر عليه شعارات صاحبه أو أحرف اسمه الأولى.

Twitter: @ketab_n

في الحدود الدّنيا، مشروطة بنتيجة على المدى القريب.

وبعد أن سوّى غريغور عند الظّهيرة رحيله من الحظيرة، ونفح رئيس العمّال كأساً، باشر منذ صبيحة الغد عمله. ومن دون إطالة، صمّم في أقلّ من شهر محرّكاً ومُولِّداً ومُحوِّلاً حسب فكرته. اختبارات ومراجعات، طلب تسجيل براءات اختراع، موافقة بهزّة رأس من وستنغهاوس، ثُمّ قرار بإقامة تلك الماكنات في كلّ مكان. يبدو أنّ الأمور تسير على ما يُرام، وأنّ الحياة بدأت تتحسّن قليلاً.

هي ألطف، وفي بعض الأماسي، عندما يغادر غريغور المختبر، يجد الوقت للتمهّل برهة في الحدائق العامّة، حديقة ريزرفوار بارك خاصّة، حيث يشتري لنفسه كيساً من الفُشار وكيساً آخر من الحبوب للحَمام الذي يرتادها. كان يقصدها دائماً لأنّه لا يزال وحيداً، وبخلاف نظرائه، كان يبدو أكثر اهتماماً بتأمّل تلك الطّيور، من تأمّل البنات، مثلاً.

سوف تدور الحياة عمّا قريب دورة أكثر إيجابيّة بعد أن اقترح وستنغهاوس على غريغور توقيع عقد مع ويسترن

Twitter: @ketab_n

يونيون. حسب بنود العقد وعلاوةً على راتبه، سوف يحصل على دولارين ونصف عن كلّ حصان بُخاريّ للطّاقة الكهربائيّة المَبيعة- وهذا أمر ليس ذا بال لأوّل وهلة، ولكنّه أحسن من لا شيء. كما أنّه سوف يُشرَع في عمليّة البيع، بشكل جِدّيّ. بعد عمليّة التّدشين التّجارية، بات ينبغي توزيع التّيّار المتناوب المتعدّد الأطوار على نطاق واسع لتزويد كامل أمريكا الشّماليّة به. حسب خطّة غير مسبوقة. ومن مؤسّسة ضخمة. جميع الصّحف تتحدّث عن ذلك. وإديسون يقرأ الصّحف.

Twitter: @ketab_n

7

في الأوقات اللّاحقة، بدأ عدد هامّ من القطط والكلاب، من السّيامي إلى الفارسي، ومن الدَّرْواس إلى الكَرْلان[1]، يختفي بوتيرة غير طبيعيّة في الأماكن المحيطة بمختبر جنرال إلكتريك ومكاتبها.

ذلك أنّ إديسون، بعد أنْ قرأ الصّحف، وتناهت إلى عِلمه أخبار، قرّر أنْ يَقوم بردّ فعل. أمام الخطر الذي يهدّد احتكاره مُمَثَّلاً في انطلاقة التّيّار المتناوب المعلَنة، يَجدُر تطويق المنافسة. ينبغي تحذير الرّأي العامّ، والعمل بدأب على الطّعن في قيمة هذه التّقنية الجديدة التي قد تُفقده سوقاً مزدهرة. وهكذا وضع خطّة من شأنها أنْ تصدم الأذهان.

(1) Carlin: كلب أفطس الأنف قصير الوبر، نسبة إلى الاسم الفنّيّ للممثّل المسرحيّ الإيطاليّ Carlo Antonio Bertinazzi (1710–1783) الشهير بكَارلان.

Twitter: @ketab_n

إذا كان جيران جنرال إلكتريك يستغربون، ويَحارون من أنّ حيواناتهم الأليفة تتغيّب بشكل مفرط، فذاك لأنّ تجارة غير مشروعة كانت قد بُعِثتْ حديثاً في المنطقة. كان أعوان إديسون يقترحون على أطفال الحيّ، والبسمةُ على وجوههم، شراءَ كلّ الحيوانات الأليفة التي يعثرون عليها، مقابل خمسة وعشرين سنتاً عن الحيوان الواحد. والأطفال، بما في طبعهم من خِسّة، راحوا يقبضون عليها بأعداد غفيرة ويبيعونها حسب الاتّفاق لتغدو محلّ فُرجة.

ألفت الحيوانات أنفسها مُحزّمة على فراش من القشّ في الشّارع، أمام حشد من المارّة، يُقدّمها مُروِّج، لتتعرّض بعد خطبة موجَزة إلى شُحنة تيّار متناوب تكون نتيجتها كما نتصوّر، غنيّة بالدّخان، والشّرر، والنّشيش والجَلَبة، وروائح اللّحم المحروق، وتصلّبٍ جيَفيّ. انطباع حادّ لدى المارّة. من هنا، وبعد أن ثبتت الأخطار الرهيبة لهذه التّكنولوجيا، لا يمكن إلّا أنْ ننذّد بها، ونُدين آثارها غير المرغوب فيها، ونحرّض النّاس على رفض إدخالها إلى بيوتهم.

وبعد أنْ قُدِّر أنّ الحيوانات الصّغيرة الحجم غير كافية،

Twitter: @ketab_n

تقرّر إجراء تلك التّجربة على حيوانات أكبر حجماً على مرأى جمهور لا يني يتزايد، فيما كان المساعدون يجولون وسط المتفرّجين، ويوزّعون مقالات طعنٍ مرعِبة تُقدِّم، إذا كانت الحاجة لا تزال تستدعي ذلك، التّيّار المتناوب كخطر مُميت. وهكذا تمّ أمام النّاس صَعْقُ عددٍ من الخرفان، والعُجول، والنّيران، والخيول- وكان غريغور يتابع ذلك عن بُعد ولكنْ دون أن يتأثّر، فكلّ تلك النّديّات المُضَحّى بها لا تُحرّك فيه ساكناً: ما داموا لا يَلمسون الطّيور، فلا ضير-، باختصار كانوا يقتلون حيوانات لا يفتأ حجمها يتزايد إلى أنْ صاروا يفكّرون في مطاولة الذّروة، الحيوان الأكبر.

وهذا جاء في وقته، إذ أنّ فرصةً سنَحت. ففي لونا بارك بكوني آيلند، صدر الحكم بالإعدام حديثاً على أنثى فيل. هذه الفيلة، واسمها توبسي وعمرها ثمانية وعشرون عاماً، عملت بمشقّة طوال حياتها في السّيرك، وما عادت تحتمل تمارينَ توازنٍ على الرِّجْل لا تنتهي كانوا يَغصبونها عليها. إذا كانت تلك التّمارين تؤمّن نجاحها، فقد كانت أيضاً تعذّبها بإثارة آلام في المفاصل لا تلائم طبعها حتّى أنّها من فرط حَنَقها، في لحظة انفعال قصوى، تركت ثلاثة

Twitter: @ketab_n

مُروِّضين مُغالين يُسحَقون. قرار الحكم: الإعدام. فكّروا في البداية، من جَرّاء فِعلتِها تلك، في شنقها- على غرار ما سوف يُنفَّذ بعد ثلاث عشرة سنة على أختها في الفصيلة بيغ ماري- ثم في مدّها بطبق من الجزر متبّل بالسّيانيد[1]، غير أنّ الحذِرة توبسي لم تلمسه. عندئذ اقترح عليهم إديسون أسلوبه.

جاء ذلك في وقته ولكنْ يُفترض أنْ تتمّ الأمور في إخراج كبير، وأنْ يُحسَّن نمط البثّ خاصّة. والحال أنّ إديسون كان مولَعاً بالسّينما، ومن فرط ميله إلى إقامة الدّعاوى، كان يقود حربَ عقودٍ حول هذا الفنّ الجديد. بل إنّه هو الذي كان يتولّى إنتاج أوّل «ويسترن» وأوّل فيلم قُطّاع طرقٍ في العالم، «سرقة القطار الكبير»[2]، حيث يبدو في مشهده الأخير أحدُ الخارجين عن القانون[3] وهو يطلق

---

(1) Cyanure: مادة سامّة، تعرف كيميائيّاً بسيانيد البوتاسيوم وهو مركب لاعضوي يحمل الصيغة KCN عديم الرّائحة شبيه بالسّكّر المسحوق، وقابل للانحلال بسرعة.

(2) The Great Train Robbery (عُرف بالفرنسية بـ Le Vol du grand rapide أو L'Attaque du grand train) فيلم أمريكي أخرجه عام 1903 إدوين ستانتن بورتر ووالّاس ماكاتشيون.

(3) بالإنكليزية في الأصل Outlaw .

Twitter: @ketab_n

رصاصة نهائيّة على الجمهور المروَّع. ولكنْ في الوقت ذاته الذي انطلق فيه في الأفلام الرّوائيّة، سوف يقتحم أيضاً الفيلم الوثائقيّ.

صَعْقُ الفيلة، بعد أن تمّ تصويره بعنايةِ إديسون أمام ألف وخمسمائة شخص، راح يُبثّ في كافة أنحاء البلاد. نرى في الشريط، تحت أنظار جمهور مأخوذ، صفيقة الجلْد اللّامبالية وهي تقف في مرح أمام الكاميرا، جذلة مثل شُرشور، رغم أنّ قوائمها وخرطومها موصولة بكبْلات إلى مولِّد. ولكن توبسي لا ترتاب من أيّ شيء، لأنّها معتادة على مثل تلك العوائق منذ أن قُبض عليها بُعَيْد مَولدها في غابةٍ بأوريسّا[1]. ولمّا أوقفوها على صفيحة معدنيّة، سلّطوا شُحنة بستّة آلاف وستّمائة فولت. وما لبث أن تعالى دخان سميك من الرّوابط الموصولة بجسد الفيلة التي خرّت في الحال مثل منطاد مثقوب، كيس كبير أُفرِغ فجأةً من محتواه، وتهاوت قوائمها نحو الجهات الأربع. وهو ما كان ينبغي إظهاره. صفّق النّاس بحرارة.

(1) Orissa التي صارت تعرف بـ Odisha منذ نهاية 2011، هي ولاية ساحليّة بغرب الهند.

Twitter: @ketab_n

8

وبينما كان إديسون يبذل ما في وسعه، كان غريغور أيضاً لا يُضيّع أيّ دقيقة. كان لا بدّ أنْ يمرّ إلى شيء آخر. لا يمكن أنْ يتوقّف في مكانٍ ما أو حتّى يَنشُد استراحة، ويكتفي بطلبات وستنغهاوس التي أنجزها. فلم تكن تلك في أساسها سوى تطبيق فكرة صاغها منذ وقت طويل، قبل عشر سنوات في حديقة عامّة بأوروبّا الشّرقيّة. اضطُرّ إلى الانتظار مدّة قبل تجسيدها ولكن ما إن جسّدها حتّى غدَت، في ذهنه، من آثار الماضي.

ودون أن يستريح إلى راتبه الجديد أو يترك لنفسه فسحة من الوقت كي يرى ما يأتي، انغمس على الفَور في تطوير مصابيحه ذات الأقواس مع عدّة مشاريع تخصّ الضّوء، ومن بين أشياء أخرى محرّك حراريّ مغناطيسيّ، ومُوَلّد حراريّ مغناطيسيّ وعاكس تيّار لماكنة ديناميّة كهربائيّة. لا لكونه مضطرّاً أو يحسّ أنّه مُرغَم من أيّ كان على الإنتاج،

Twitter: @ketab_n

وإيجاد أفكار جديدة، والابتكار دائماً، وإنّما لأنّ ذلك فوق طاقته، لكونه في هذا المجال وفي نظره هو- إذ يملك، والحقّ يقال، فكرة سامية عن نفسه- أخصب خيالاً من الجميع.

أنْ تَشتغل كلّ تلك التّصاميم كما رسم وقَدّر- التّجارب تدور دائماً حسب توقّعاته- متأتٍّ، قبل صنع الماكنة، من تلك القدرة الفريدة على رؤيتها بالتّحديد في ذهنه، في أبعاد ثلاثة وفي كلّ جزئيّاتها. في سرعة فائقة، تتبدّى له قِطع الآلات حقيقيّة وتكاد تُلمس في كلّ خاصّيّة من خاصّياتها، حتّى السّيرورةِ نفسِها التي بموجبها سوف يظهر بِلى هذه الآلات.

ولكنّ مثل تلك المَلَكات، وخاصّةً ذلك التّدخّل المفرط للواقع في الخيال، وطغيان الفكرة التي تتوهّم أنّها هي المادّة، هذا كلّه يمكن أن يقطع الفرد قليلاً عن العالَم، أو عمّن يشتغلون على هذه المادّة على أيّة حال. لذلك، عندما اقترح وستنغهاوس أنْ يضع معاونين في خدمة غريغور، لم تَجرِ الأمور أبداً كما يُرام. فهو يحتقر بجلاءٍ لوحات رسومهم، مفضّلاً عليها بناءاته الدّاخليّة الفوريّة،

Twitter: @ketab_n

ويعامل مساعديه بخشونة، مسلّطاً عليهم انفعالاته الفجائيّة، ويكيل لهم اللّوم متعالياً عليهم باحتقار حين لا يَفهمون بالسّرعة المطلوبة، ويُبدلهم بسواهم بوتيرة حامية إذا لم يكونوا همُ الذين أسلَموا أمرهم وانصرفوا من تلقاء أنفسهم. وسرعان ما بدا أنّه يفضّل العمل وحده، دون حضور أحد، باستثناء محاسبه.

بدا أيضاً من جهةٍ أخرى أنّه يفضّل البقاء وحيداً والعيش وحيداً بوجه عامّ، أنْ يتملّى ذاته في المرآة خير من التطلّع إلى الآخرين، وأن يستغني عن النّساء رغم أنّه ينال إعجابهنّ كثيراً لأنّه وسيم جدّاً، وفارعٌ جدّاً، ولامع وذو حديث جذّاب، لم يبلغ بعد أربعين عاماً، فهو صالح لأن يُستحوَذ عليه. إذا كان صحيحاً أنّه لا يرفض، وهو الذي لا يحبّ الرّجال بشكل أفضل، أن تتزاحم النّساء خِفية حول شخصه، فإنّه يبدو حتّى الآن غير راغبٍ كثيراً في اقترابهنّ أبعد من عتبة محدّدة. ولكنّ هذا مرهون أيضاً ببعض نقاط خاصّة في طبعه.

طبعٌ في الواقع لا يُطاق، بعضُ ميزاته، ولن نذكر سوى اثنتين، كانتا تشغلان غريغور بشكل لا يدَع له خلوة.

Twitter: @ketab_n

أوّلاً انشغاله البالغ بالميكروبات، والبكتيريات العصويّة الشّكل وكلّ نوع من أنواع الجراثيم، ما يضطرّه إلى تنظيف كلّ ما يحيط به باستمرار، بشكل مفرط ودون أنْ يَعهد بهذه المهمّة إلى أحد، فيغسل يديه من قبل، ويغسل يديه من بعد. ثُمّ هوسه بِعَدّ كلّ شيء، بصفة دائمة، وهو شُغل يستغرق كثيراً من الوقت، ومُرغِمٌ إرغامَ قانون. يَعُدّ حجر تبليط الشّوارع، درجات السّلالم، طوابق العمارات، يَعدّ خطواته نفسها من مكان إلى آخر ويقارن النّتائج كلّ مرّة، يَعدّ المارّين في الأنهج، والسّحب في السّماء، والأشجار في الحدائق الصّغيرة العامّة، والعصافير في تلك الأشجار وفي السّماء حيث يختصّ من بينها الحمام بعَدٍّ وحدَه.

المال فقط هو الذي لا يَعُدّه غريغور بصفة خاصّة، كأنّه خارج عن القانون- وهو ما يفسّر الحضور الضّروريّ والدّائم لمحاسب-، فغريغور لا يشغل به باله. لأنّ نشاط العدّ ذاك يأخذ منه وقتاً أكثر لكونه ليس آليّا فحسب، بل هو يحتاج أيضاً دائرة الانفعالات: في الزّخم اللّامتناهي للأرقام التي تشغل ذهنه، يوحي كلّ واحد منها لغريغور بشعور خاصّ، نكهة متفرّدة، لون خاصّ به وحده، فلا

Twitter: @ketab_n

شيء يعادل محبّته الكبرى للأعداد التي تقبل القسمة على ثلاثة، رقم جيّد، نعرف ذلك، يصلح في كلّ المناسبات. كلّ ما يَقبل القسمة على ثلاثة، في نظر غريغور، أفضل. لا شيء لديه أجمل من مضاعف ثلاثة.

Twitter: @ketab_n

9

عمليّات صَعْق الحيوانات بالكهرباء، التي صارت تقام بشكل منظّم في كلّ مفترقات الطرّق قبل عرضها على أُولى الشّاشات، كان لها في البداية أثَر بالغ في نفوس النّاس، ثُمّ تواصلَ أثرُها ولو بدرجة أقلّ، هذا صحيح، ولكنْ قد يجيء يوم لن يكون فيه حتّى صَعق الفيَلة كافياً. فالنّاس تَملّ بسرعة، لفرط تفاهة الإنسان، إلخ. وإذ عاين إديسون وجنرال إلكتريك ذلك، بدآ يتساءلان، ما دام الأمر على ما هو عليه، ألن يكون تطبيق التّيّار المتناوب على كائن بشريّ أكثر صراحة ووضوحاً واستعراضيّة، وجديراً بالتأثير في الأذهان بشكل أفضل وإقناع الرّأي العامّ بأخطاره. بقي أنْ نضع اليد على متطوّع.

بطبيعة الحال، ما ينقص هم المترشّحون، فهؤلاء لا

Twitter: @ketab_n

يتدافعون للتّضحية بأرواحهم عن طيب خاطر. بعد مساعٍ طويلة وأبحاث خفيّة داخل مختلف المؤسّسات، من ملاجئ ومبيتات ومصحّات، حول بعض الأفراد المكتئبين، والذين سئموا الحياة سأماً قد يُغويهم بمحاولة الحبل، أو الإستركنين[1]، أو السّقوط من شاهق، أو العتيق «45 لانغ كولت»[2] أو الحديث «7,65 براوننغ»[3]، تبيّن ألّا أحد بلغ به السّأم حدّ التّفكير في الصعقات الكهربائيّة. ساد فتور هِمّة، وبدأ التفكير في التّخلّي عن المشروع، إلى أنْ بدا أنّه يمكن الإمساك أخيراً بالمرشّح المثاليّ.

هذا الزبون الأوّل، حبيس سجن سينغ سينغ، هو رجل يدعى وليام كيملر، كان قد أباح لنفسه مؤخّراً قتل خليلته بفأس. إلّا أنّ مثل هذه الممارسات لا يُنظر إليها بعين الرّضى، وتأثير الكحول لا يبرّر أيّ شيء. ارتأت المحكمة أنّه ليس من المدنيّة في شيء أنّ يُخذِّع المرء هكذا

(1) Strychnine: مادّة سامّة تُستخلص من بعض أنواع الجوز، وتُستخدم كميّات قليلة منه في الصّيدلة.

(2) 45 Long Colt: مسدّس طويل السبطانة ينسب إلى صانعه الأمريكي صامويل كولت Samuel Colt (1814–1862)

(3) 7,65 Browning: مسدّس من عيار 17 ملم، ينسب إلى صانعه الأمريكي جون موزس برونينغ John Moses Browning (1855–1926).

Twitter: @ketab_n

خليلته، فحكمت عليه بالإعدام، وهو حكم لم يعترض عليه، منطقيّاً، المدعوّ كيملر نفسه.

حتّى ذلك الحين، في مثل تلك الحالات، كان يُعمَد إلى الشّنق. إلّا أنّ إديسون، باستعمال علاقاته، وتقديم البراهين على أنّ منظومته الجديدة أكثر إنسانيّة من المشنقة العنيفة، وأسرع، وأنظف صحّيّاً وأقلّ إيلاماً، تدبّر أمره في إنشاء تجهيز مناسب داخل السّجن الإصلاحيّ. واعتباراً لأنّ من يخضع لمثل تلك المعاملة يستوجب نوعاً من الرّفاه، تقرّر أنّ من الأفضل أنْ يكون المرشّح لها جالساً: لذلك قُطعت شجرة بلّوط كانت تنمو بكلّ براءة في فناء السّجن، وجُزّئت، ومن حطبها صَنع رفاق كيملر المساجين أريكة بسيطة. في هذه القطعة من الأثاث ثُبّت صاعقان ملفوفان بإسفنجات نديّة، موصولة إلى دينامو من موديل وستنغهاوس تَمّ الحصول عليه بطريقة غير شرعيّة. وفي فجر يوم من أيّام أغسطس في السّاعة السّادسة، في حجرة مضاءة –ويا للمفارقة!– بالغاز وأمام عشرين شاهداً من صحافيّين وكهنة وأطبّاء، أُجلِس وليم كيملر على المقعد البالغ الجِدّة ذاك.

Twitter: @ketab_n

محاولة الإعدام الأولى أخفقت: بعد صدمة كهربائيّة ذات ألف فولت، سُلّطت عليه لمدّة سبع عشرة ثانية، كان كيملر لا يزال حيّاً. كانوا يودّون طبعاً إعادة التّجربة في أسرع وقت ولكنّ المولّد كان بحاجة إلى وقت معيّن لكي يستعيد شُحنته. وكان لا بدّ إذنْ من الانتظار برهة طويلة، فاصلاً مُضجراً كان يمكن الاستماع خلاله لصراخ وأنين من كيملر، المحروق بفظاعة، ما خلق جوّاً مذهلاً في المكان. وبعد أنْ شُحن المولّد، أُجريت المحاولة الثّانية خلال الدّقيقة الطويلة التي رُفع خلالها الجُهد إلى ألفي فولت: فانتشرت بسرعة عندئذ رائحة لحم مشويّ فيما كانت شرارات طويلة تنبعث من أطراف كيملر، وعرَقه الغزير يتحوّل تدريجيّاً إلى دم، وعمود دخان كثيف بدأ يصّاعد من رأسه، وعيناه تحاولان بنجاح الإفلات من مِحجريهما حتّى لم يَعد موته، الذي أكّده طبيب شرعيّ، موضعَ شكّ.

ها قد تمّت العمليّة. بعد هذا المحكوم المحترق الأوّل، ما عادت الآثار المؤسفة للتّيّار المتناوب على الإنسان تثير الجدل. لم يكن توماس إديسون مستاءً. أنْ يحسّ كلّ

Twitter: @ketab_n

من شاهد نهاية كيملر بالرّعب أمام ذلك المشهد يخدم مصلحته تماماً، فمثل ذلك النّظام صار منذ ذلك الحين مرتبطاً باسم وستنغهاوس. لنتفهّمْ سعادتَه ولا ننسَ أبداً أنّ أجمل الاختراعات لها في الغالب حكايات جميلة. هكذا مثلاً وُلد الكرسيّ الكهربائيّ: من برهان دعائيّ مضادّ.

Twitter: @ketab_n

10

ولكنْ مهما تدبّر إديسون أمره، فإنّ القوى بصدد تغيير موازينها في الحرب الكهربائيّة التي تضعه في مواجهة وستنغهاوس. فبَعد أنْ فَهم هذا الأخير تفوُّقَ التّيّار المتناوب وسعى إلى إقناع مَنْ حوله، صار يحلم بأنْ يزوِّد به كامل القارّة الأمريكية، فأجرى اتّصالات، وكسب نفوذاً وحشد إلى جانبه داعمين. ولكي يُسنده ويواجه الحملة الضّخمة لجنرال إلكتريك، انطلق غريغور في سلسلة من المحاضرات في الولايات المتّحدة ثُمّ في أوروبّا.

في هذا التوجّه العامّ، وبعد أن بدّد- رغم الحاجب المقطَّب فوق العين الحادّة لمحاسبه- المساعداتِ الماليّةَ الأولى الآتية من ويسترن يونيون، بدأ في تشكيل خزانة ملابس، وقد صار حريصاً على أنْ يكون الرّجلَ الأكثر

Twitter: @ketab_n

أناقة في الشّارع الخامس. احتفظ ببذلاته السّوداء مع تحسين تفصيلها، وتعويض قُماشِها الخشن بالفلانيلّة أو بالغَبردين، وأقمصتِه بالباتِستة والقَصبيّ، وجمّع تشكيلة من ربطات العنق وقفّازاتٍ من جلود الجَدي والأيّل والخروف- التي ما لبثت غابتها الميكروبية أنْ فرضت عليه عادةَ عدمِ استعمالها، وكذا مناديله الحريريّة البيضاء الثلاثة، إلّا مرّة واحدة-، وتسلّح بدغل من العكاكيز من النّوع النادر، ذات عُجَر منقوشة، وقايض في الختام قبّعته الدّربي الوحيدة بعدد كبير من القبّعات العالية ذات الحرير اللّمّاع، ومن المُقَرَّنات[1] وقبّعات بنَما[2]. إلّا أنه، رغم تلك الأناقة، لم يكن يلجأ أبداً إلى الحَلْي، فبُغضه لتلك المجوهراتِ العديمة القيمة بلغ حدَّ أنّ ساعته لا تزدان أبداً بسلسلة، ولا ربطة عنقه بمشدّ، ولا أيّ إصبع من أصابعه بأبسط خاتم.

كان من المفروض طبعاً أن يروّج غريغور خلال محادثاته خاصّةً للمنظومة التي أعلاها وستنغهاوس وقد

---

(1) Chapeau–claque مقرّنة: قبّعة ذات قرنين.

(2) Panama : قبّعة خفيفة من قشّ ملوّن.

Twitter: @ketab_n

أوْلاه ثقته كاملة. ولكنّه كان لا يريد أن يكتفي بتلك البيّنة وحدها بل كان يرغب أيضاً في التّعريف بأفكاره الخاصّة، ويغتنم المنبر الذي أُتيح له لتقديم عرض صغير.

أمام قاعة غارقة أوّلَ الأمر في ظلمة شاملة رغم ما يخترقها هنا وهناك من التماعات هاربة، ظهر فجأةً وسط هالة من الضّوء الأبيض وكأنّما انبجس من عدم في سترته الردنغوت السّوداء المضغوطة، بوجهه الطويل الممتقع وقامته الفارعة التي زادتها قبّعة التّشريفات طولاً، وهو محاط في منبره بأدوات غريبة، وآلات لم يسبق أن رآها أحد- وشائع لولبيّة، مصابيح متوهّجة، لوالب مختلفة وخاصّة عدد من الأنابيب الزّجاجية من شتّى الأشكال، مملوءة بغاز ذي ضغط واطئ.

بدا غريغور مُلغَزاً ومسرحيّاً، مقتصداً في إضاءاته وحركاته، مضيفاً إلى مواهبه الخطابيّة موهبة الممثّل ولاعب الخفّة المقارب للسّاحر. ولمّا كان ينبغي إثبات أمان منظومة التّناوب قبل كلّ شيء، فقد أمسك بيده اليسرى خيطاً قادماً من وشيعة يتنقّل فيها تيّار ذو جُهد عالٍ، وباليمنى تلقّف أنبوباً فإذا الأنبوب، أمام ذهول

Twitter: @ketab_n

الحاضرين، يضيء في الحال. وهكذا أقام الدّليل على أنّ الكهرباء، وهي تعبُر جسمه، لا تصيبه بمكروه. صحيح أنّ غريغور، لإقامة تلك البيّنة، لجأ إلى تيّار ذي تردّد عالٍ لا يستطيع أن يدخل إلى الجسد ولكنّه يتنقّل في محيطه دون أدنى خطر؛ هي حيلة بسيطة إذنْ، خدعة بالغة الخفّة ولكنْ لا يهمّ، ما دامت تؤمّن اقتناع الجمهور وتأتي بنجاح مؤكَّد.

وبعد أنْ أجرى غريغور ذلك حسب تعليمات وستنغهاوس، جعل يأخذ بعض المبادَرات. لم يكتفِ بالإشادة بالتّيّار المتناوب وانعدام ضرره، دون إعلام مموّله، إذ سرعان ما بدأ يبسط أيضاً كلّ أفكاره. وفي طليعتها تصميم جديد، غير معروف تحت سماواتنا، اكتشاف غير مُدرَج في البرنامج: تصميم طاقةٍ حرّة، متفشّية وحركيّة يزعم غريغور أنّها موجودة في كلّ نقطة من الكون، ولا يبقى سوى استثمارها. ليست سوى مسألة وقت، جرؤ غريغور على القول في غير حذر: لن تتأخّر الإنسانية، هتف قائلاً، في خلق اتّساق بين التّقنيات المتعلّقة بالطّاقة والدّواليب الكبرى للطّبيعة. عندما عَلِم وستنغهاوس من أعوانه المذهولين، المدسوسين احتياطاً وسط الجمهور،

Twitter: @ketab_n

غضّ الطّرْف في تسامح.

بفضل حضوره المسرحيّ، وطريقته في تخيّر العبارة الصّائبة، والمباغَتة، والتّشويق، وتلاعبه ومهارته اليدويّة كبرهان، لاقى غريغور في محاضراته النجاح في الحال، إذ كان محلّ تغطيةٍ صحافيّة مذهلة، وتناقلِ أخبارٍ مسعورٍ أحدثا إقبالاً متزايداً كلّ يوم. وسرعان ما صار موضوعَ الحديثِ الوحيدَ في مآدب العشاء الرّاقية حتّى أنّ غريغور ببساطة- انظروا كيف يمكن أنْ تسير الأمور بسرعة!-، أضحى خلال بضعة شهور أشهرَ عالمٍ على وجه الأرض.

بأقصى سرعة، جعل النّاس يتخاطفونه. وتهاطلت عليه فجأةً التّشريفات والأوسمة. ونَشدت الحكومات الأجنبيّة خدماته. سَمّوه ساحراً، وصاحب رؤية، ونبيّاً، وعبقريّاً مِعْطاءً، ونعتوه بأكبر مخترع في كلّ الأزمان. صار المجتمع الرّاقي في نيويورك يتودّد إليه، من صناعيّين ورجال مال، ومديري جرائد، وأعضاء مجالس جامعات، وكتّاب، وممثّلين، وموسيقيّين، وشعراء، ونحّاتين، ومتعاطي السياسة، ورؤساء، وملوك، وكلّ ما نريد.

جعل يَقبل بالدّعوات لدى الأثرياء، والأثرياء جدّاً،

Twitter: @ketab_n

وواسعي الثّراء، إلّا أنّه غالباً ما كان يرفضها. الأثرياء من عادتهم تنظيم مآدب تسمّى الواحدة منها عشاء فضّة، عشاء ذهب أو ألماس أو بلاتين. والفرق البسيط بينها يقوم على المادّة التي صُنعت منها جوهرة تجدها كل سيّدة أثناء تلك اللّيلة وهي تجلس إلى المائدة، مصرورة تحت منديلها المُنَشّى. غريغور حضر مرّة أو اثنتين هذه المآدب ولكنّ نفوره من المجوهرات كان من الشّدّة ما جعله يمتنع سريعاً عن العودة إليها. الأثرياء جدّاً يفعلون الشّيء نفسه تقريباً، إلّا أنّه، في سهراتهم، لا يُسمح إلّا بتدخين السّجائر الملفوفة في أوراق من فئة مائة دولار، وغريغور، بصراحة، لا يرى ما المصلحة في ذلك. واسعو الثّراء، وهم الأكثر جنوناً، يُقيمون سهرات غريبة حيث يُستحسَن مثلاً أن يأتي كلّ بليونير غيرَ حليق ولا مُسرّح الشّعر في أسمال قذرة قدر الإمكان، فيجلس على أرض وسخة، ويحتسي جعة تالفة وهو يتلذّذ بـأكل الفضلات: قشور الخبز، جلود الطرائد المنتوفة، سقَط البقول يُقدّمها في أطباق من الكريستال خادم بشعر مستعار وحُلّة خدم. قد يكون غريغور، رغم أنّه لم يُظهر شيئاً، وجد ذلك مسلّياً

Twitter: @ketab_n

لمدّة خمس دقائق، ولكنّه ما لبث أنْ أحجَم عنه.

وبالرّغم من أنّ المشاهير الذين خالطهم غريغور، وليس أقلّهم روديارد كيبلنغ[1] مثلاً، ومارك توين[2] أو إينياس بادريفسكي[3]، كان يمكن أنْ يألفهم لو شاء، فإنّه لا ينساق أبداً إلى الانتشاء بهيبتهم إذ يبقى على مسافة منهم، دوماً، ويحرص على ألّا يرتبط بهم كثيراً. وعلى أيّة حال فهو لا يحتاج إلى فائض جهد: فتلك هي طبيعته الجافية العديمة الابتسام. لا يوجد غير زوجين يَلقيان لديه حظوة، هذا إن أمكن أن يكون كذلك، وسيصبح لهما صديقاً حميماً: نورمان أكسيلرود، الذي ينشط كمُحْسنٍ إلى الإنسانيّة[4]، وزوجته إيتيل.

بما أنّ المرحلة كانت عند بداية ظهور السّينما، حيث ظهرت، وهذه ظاهرة مجهولة حتّى ذلك التّاريخ، نجومها الأولى، فلنستغلّها في وصف آل أكسيلرود ولو سطحيّاً.

---

(1) Rudyard Kipling (1865–1936) كاتب وشاعر وقاص بريطانيّ.

(2) Mark Twain (1835–1910) كاتب أمريكيّ ساخر.

(3) Ignace Paderewski (1860–1941) عازف بيانو وملحّن ورجل سياسيّ ودبلوماسيّ بولنديّ.

(4) مُحْسِن إلى الإنسانية أو محبّ للبشر philanthrope : شخص يرعى الآخرين ويشجّع العلوم والآداب وسواها ويعنى بتحسين الوضع الإنسانيّ.

Twitter: @ketab_n

يذكّر نورمان بليونيل بارّيمور[1]، فهو طويل ولو أنّه مرِن، جافّ ولكنّه باسم. أمّا إيتيل فهي صَموتٌ وحالمة، لها شيء من بيرل وايت[2] في نظرتها، وفي بسمتها مزيج من الأختين غيش، ليليان ودوروثي. عندما يلتقي بهما غريغور، كان ذلك يتمّ دائماً أو يكاد في حضور المساعد المبتدئ لأكسيلرود، الشّاب أنغوس نيبر- الذي يذكّر بقامته القصيرة ووجهه الفزع ببعض ملامح إليشكا كوك الذي بدأ مسيرته بعد ذلك بمدّة. أنغوس نيبر يقوم لدى نورمان مقام السّكرتير والسّائق ومدير شؤون البيت، ورغم ذلك يطيعه بالنظرة والإشارة، كما يبدو أنّ عينيه لا تفارقان إيتيل، التي ربّما كانت أصابعه أيضاً تحلم بها.

لم يتردّد غريغور في القدوم لتناول العشاء لدى آل أكسيلرود، ثُمّ صار يأتي بانتظام مرّة في الأسبوع ثُمّ مرّتين، الثّلاثاء والجمعة. أيّام الثّلاثاء للشّؤون الخاصّة، بثلاثة

---

(1) Lionel Barrymore (1878–1954) ممثّل ومخرج وكاتب سيناريو أمريكيّ.

(2) Pearl White (1889–1938) و Lillian Gish (1893–1993) وأختها الصّغري Dorothy Gish (1898–1968) هن ممثّلات أمريكيّات برزن أوّل ظهور السّينما، إلى جانب الممثّل Elisha Cook (1903–1995).

Twitter: @ketab_n

أشخاص أو أربعة، بحسب حضور أنغوس نيبر أو عدمه، أمّا أيّام الجمعة فكانت أكثر مدنيّة ووفرة، تجمع شريحة متغيّرة ومنتخَبة من المعجبين بغريغور. هؤلاء المعجَبون هم إذنْ ذوو أساليب ومن مهن شديدة الاختلاف ويُنتَقَون، كما أسلفنا، من الأوساط الفنّيّة والعِلميّة أو المهتمّة بالسّياسة، ولكنّ المخترع أصبح أيضاً موضِع عبادة شخصيّة لدى عدد من المتزهدّين وأتباع بعض المذاهب الإشراقيّة. بل إنّه صار محلّ اهتمام دعاة الإخفائية[1]، ومن ثَمَّ بدأ أناس غريبو الأطوار يتزاحمون حوله، معلنين أنّه المعشوق الزُّهَرّيّ[2]، آتٍ من كوكب بعيد وصل إلى الأرض في مركبة فضائيّة- وفي رواية أخرى، على جناحي حمامة بيضاء كبيرة.

هذا يسلّي غريغور، ونظراً لعطفه الأثير على الطّيور وخاصّة على آكلات الحبوب، ربّما لم يكن ذلك يَسوؤه- دون أن ينطق بكلمة بطبيعة الحال. إلّا أنّ مثل هذه الأعمال، في الوسط العِلميّ، غير مقبولة. فالأسنان تكزّ

(1) Occultisme: مذهب يؤمن بالقوى الخفيّة وبإمكان إخضاعها للسّيطرة البشريّة.

(2) نسبة إلى كوكب الزّهرة.

Twitter: @ketab_n

من جهة الشركات العلميّة. ما ولّد وجهاً آخر للمسألة، وجهَها السّيّئ والمقابل الكلاسيكيّ للنّجاح: بدؤوا ينعتون غريغور بالدّجّال والنّصّاب. وجعلوا يعيّرونه بالمشعوذ بشكل سريع ومتعمّد لا سيّما أنّه كان يحبّ الظّهور كثيراً، والحصول على موقع شخصيّة عامّة، والتّباهي والتبجّح في الصّحف، وهي خطيئة لا يستسيغها زملاؤه من العلماء ولا يغفرونها له.

وهذا لم يمنع اندفاعه وحماسه من الاستحواذ على الجماهير، المنذهلة بمواهبه الإخراجيّة وكلّ تلك الأدوات المكمّلة ومنها الأنابيب الغريبة التي يحيط بها نفسه، والتي صارت علامته المميَّزة ويُهمل دائماً تسجيل براءة اختراعها أو تسويقها. هو مخطئ، يا للخسارة، كان عليه أن يسجّلها- لأنّ ضربة أخرى قاسية سوف تأتي: لن نكتشف إلّا بعد خمسين سنة أنّ تلك الأدوات هي مَنشأ الأنابيب اللّاصفة العصريّة، التي سوف تُوسم بهذه التسمية الموفّقة: النّيون.

من جهته، كان وستنغهاوس، الغارق في الصّراع الذي يضع التيّارين المتناوب والمتواصل وجهاً لوجه والذي يبدو أنّه كان بصدد كَسْبِه، يواصل غضّ النّظر عن تلك

Twitter: @ketab_n

التّجاوزات، مبتهجاً برؤية منظومته تُختار لإضاءة المعرض العالميّ بشيكاغو، الذي سيتواصل على مدى خمسة أشهر للاحتفال بمرور أربعة قرون على وطء قدم كريستوف كولومب أرض أمريكا.

هذا المعرض، الذي حظي بشغف كبير، لن يكون أيضاً سوى بداية. فبعد أن عرف وستنغهاوس كيف يقنع في أعلى مستوى أنّ بالإمكان نقل الكهرباء على مسافات بعيدة، وهي نقطة ضعف إديسون بشكل لا رجوع فيه، تَمّ اختياره لتزويد مدينة بوفّالو بالطاقة الكهربائيّة في البداية. إثر توقيع عقد إنشاء كامل البنية التّحتيّة للتّيّار المتناوب، شُرِعَ في بناء محطّات التّوليد الكهربائيّ الجديدة. وأوّل تلك المصانع الكهرومائيّة[1] الواقعة على مسافة أربعين كيلومتراً، سوف تُبنى حيثما شاء غريغور وحَلُم وتَخيّل أو توقّع في شبابه: عند شلّالات نياغارا.

(1) Hydroélectrique: محطّة لتوليد الكهرباء من الطّاقة المائيّة.

Twitter: @ketab_n

11

في معرض شيكاغو، كان غريغور لا يزال يحتلّ موقع النّجم وهو يبْسط عرضه الجديد.

الشّاربان صقيلان محفوفان بالميلّيمتر، والشّفتان مضمومتان في شكل خيط، والشّعر أسود مائل إلى الزُّرقة مفروق في الوسط متيحاً بروز جبين بالغ العرض، اعتلى قائماً بصلابة منصّة عالية في قاعة تغصّ بحضور غفير، وترقّب طويلاً أن يسود صمتٌ شامل وهو يرمق الجمع بنظرة صارمة –مع أنّ الأمر كان تمثيلاً محضاً، إذ كان في الواقع مشغولاً بعدّ الجمهور في أدقّ مقعد إضافيّ.

طيفه المديد الشبيه بطائرٍ مائيّ ذي ذنَبٍ عقعقٍ أسود، بربطة عنق بيضاء وحذاء مُبرنَق– له نعل سميكة مدعَّمة بفِلّين عازل تجعله، مع القبّعة العالية، يتجاوز المترين

Twitter: @ketab_n

بسهولة-، يرتسم أوّلَ الأمر في ظلّ المسرح، قبل أن تُظهر الأضواء الكاشفة شيئاً فشيئاً عدداً وافراً من الأجهزة ذات التّردّد العالي. يحتوي الضّوء الخافت بكوّة في الجدار على لافتات تضيئها أنابيبه المعهودة، ولوالب ومصابيح أخرى لاصفة تروح أضواؤها وتجيء كالأنفاس. وهنا وهناك يُومض من الدواليب المسنّنة برقٌ. أدوات نحاسيّة صغيرة، كرويّة أو بيضاويّة، تدور وحدها بسرعة فائقة على مناضد مغطّاة بالمُخمَل وتغّير اتّجاه دوَرانها بانتظام. زاد غريغور في إطالة السّكون، بعد أن خيّم على المكان، ثُمّ بدأ يعرض سلسلة متسارعة من الأعاجيب الكهربائيّة.

بدفع منه وعن بُعد، وكأنّما هو خاضع لمرور مغناطيسيّ، ما لبث أنْ نشّ الشّرر من كلّ جانب، قاذفاً ومضاتٍ باهرةً تَنتشر بالتّداول عبر الهواء في كلّ الاتّجاهات التي تُطلقها ذراعا غريغور الطّويلتان، الممدودتان بأصابع طويلة من بينها إبهامان لا ينتهيان، نحو مصابيح تشرع في اللّمعان باهتياج.

والجمهور لم يفهم، كَحالي أنا، كلّ تلك الأشياء العلميّة، فقد فتح عينيه على اتّساعهما، وفغر فاه أمام

Twitter: @ketab_n

ذلك المشهد، ولكنْ عندما جعل غريغور، في فرقعة مدوّيّة، يُجري بين يديه تيّارات تتجاوز مائتي ألف فولت، متذبذبةً مليون مرّة في الثّانية وتجلّى ذلك بموجات وميض فسفوريّة مُبهرة، هذا إن لم يتحوّل هو نفسه إلى طوفان من النّار، صارت القاعة كلّها تصرخ حتّى انتهاء الظّاهرة. بعد ذلك، وسط السّكون الذي عاد تدريجيّاً، واصل جسدُ غريغور الثّابتُ وثيابه لبرهة إصدار ذبذبات وهالات ضوء، كانت تخفت ببطء إلى أنْ أطبَق الظّلام من جديد، وسط صمت دياسٍ[1] لا يُعكّره حتّى نفَسُ الجمهور المقطوع. ولمّا أنيرت الأضواء في القاعة بشكل عنيف، جعل النّاس ينظر بعضهم في عيون بعضٍ، دون أنْ يجرُؤوا على التّصفيق، قبل أنْ يلاحظوا أنّ غيرغور وتوابعه اختفوا في لحظة من المسرح الذي صار مثل علبة حَلْي مطليّة باللّكّ[2]، نظيفة لا تشوبها شائبة، فارغة- كمرآة تعكس إلى العالَم ذهوله.

وما إن انقشع الذّهول حتّى نهض النّاس في فوضى

(1) Crypte: قبو تحت كنيسة.

(2) Laque: عصارة صمغيّة تفرزها بعض الأشجار وتُصبغ بها الجلود والخشب.

Twitter: @ketab_n

واتّجهوا نحو باب الخروج، الرّجال يعتمرون قبّعاتهم حالمين، والنّساء يعدّلن بآليّةٍ أشرطتهنّ ودنتلّاتهنّ بأطراف أظفارهنّ إلى أن اختفى الجميع، قبل أنْ يشرع قيّمو البيت والعاملات في ذرْع الممرّات، لكنس الأرضيّة وتقليب الطّرْف نحو الأشياء المنسيّة، دبابيس شعر ساقطة، مراوح ضائعة، ومنشورات دعائيّة مرميّة. انصرف الحضور كلّه ولم تبق غير إيتيل أكسيلرود، جالسة في الصّفّ الأوّل من المقاعد، كأنّها منغمسة في أفكارها، وكانت يومَها ببساطة في تنّورة مدوَّرة وصدارة ذات كُمّين مجعّدين بلون ورديّ يمتدّ حتّى ياقة الضّباط التي تسجن جيدها، وكعادتها دون أيّ سوار أو قلادة أو مِشْبك صدر أو خاتم عدا خاتم زواجها. لم تقرّر النّهوض من مقعدها إلّا إثر برهة، بعد أن توارى غريغور متّجهاً نحو الكواليس لفَترة، نحو شعور متزايد بعظمته، نحو أوّل مغسل صادفه ليغسل فيه يديه.

عندما غادرت إيتيل أكسيلرود القاعة، لم تتّجه إلى جناح النّساء حيث تزدحم صديقاتها من المجتمع النّيويوركي الرّاقي اللّاتي قدمن إلى شيكاغو، وحيث يُعرض، من أوّل ماكنة لغسل الأواني إلى سحّاب الأثواب الحديث، كلُّ

Twitter: @ketab_n

ما يَعِد بتسهيل حياتهنّ. وإذ رأت، قرب طريق فيرّيس، زوجها برفقة الشّابّ أنغوس نيبر، آثرت عدم الالتحاق بهما أيضاً، واتّجهت إلى نوافير الماء المضيئة التي صُمّمت خصّيصاً للمعرض. وإذ كان نورمان أليكسرود منهمكاً في حديثه مع سكرتيره، لم ينتبه إلى الحضور البعيد لزوجته، أمّا الشّابّ نيبر فقد رآها.

لنتوقّف قليلاً عند الشّابّ أنغوس نيبر. هو فتىً ذو قامة قصيرة ومظهر فزِع رغم أنّه خطير، مُراءٍ رغم أنّ براءة شاردة في نظرته، ساذجة وعنيدة مثل نظرة ملاك، تُنافس ذلك الملمَح المراوغ وتعطي انطباعاً عن طفل مجنون إلى حدّ ما، قادر على أنْ يُعذّب شخصاً حتّى الموت وهو يضمّه إلى صدره باكياً، ويَحْبوه حبّه وحياتَه وسط حصّتين من التعذيب بالحديد المحمّى- مقلِّداً بذلك، بشكل استباقيّ، ملامح الممثّل إليشا كوك جونيور[1] الذي ولد في سان فرانسيسكو بعد عشرة أعوام، مثل ريشارد ويدمارك ذات 26 ديسمبر، قبل أن يكبر هنا بالذّات، في شيكاغو،

(1) عُرف الممثّل الأمريكي إليشا كوك جونيور أو الصّغير Elisha Cook Jr. بوجهه الصّارم التعابير الذي يزيد من برودته لون عينيه الأزرق الشّديد الوضوح وغياب الابتسامة على محيّاه.

Twitter: @ketab_n

ويستعرض مواهبة في هوليود كممثّل من الدّرجة الثّانية.

كان أنغوس نيبر يكنّ لإيتيل، لنقرّ بذلك، شغفاً بغير أمل، وتوصّل إلى أن يكون أساسيّاً لا غنىً لنورمان عنه، مؤدّياً وظيفته كسكرتير على أفضل وجه لكي يستطيع البقاء بعيداً أقلّ بُعدٍ ممكن عن زوجة المعلّم. أمّا هي، فرغم لطفها وأفكارها المتقدّمة، فلا ترى فيه سوى شكلٍ يكاد يكون مُحسَّناً من الخادم. ولكنْ عندما لاحظ الشّابّ نيبر بحدّةِ إدراكٍ الاهتمامَ الذي توليه إيتيل خِفيةً لغريغور، استقرّ في روحه حقدٌ مطلقٌ تجاهه. وحينما لمحها تبتعد نحو نوافير الماء، لم يأتِ على ذكر ذلك الأمر.

Twitter: @ketab_n

12

في تلك الأثناء، كان غريغور ينشّف يديه بمنشفة صالحة لاستعمال وحيد أخرجها للتّوّ من حقيبته، ويعدّد لنفسه مشاريع أخرى لافتة تقوم على الكهرباء.

ينبغي مثلاً، وهو عزم قديم، أنْ يلتفّ ذات يوم في لحاف من نار باردة يمكن، حسب تصوّره، أن تدفّئ رجلاً عارياً في القطب الشّماليّ، وسوف يَخرج منها ليس فقط سالماً بل أحسنَ حالاً: ذهن منتعِش، أعضاء مُحسَّنة، بشَرة مُجدَّدة. من زاوية طبّيّة أيضاً سوف يَجدر كذلك ضبط فكرته في التّخدير داخل المستشفيات بفولتيّة[1] قويّة. سيكون من المستحسَن أيضاً ردم كبلات عالية الجُهد تحت المدراس لتحفيز التّلاميذ الخاملين، وفي المسارح، تهيئة

(1) Voltage: القوّة المحرّكة الكهربائيّة مَقيسة بالفولتات.

Twitter: @ketab_n

قاعات بكسوة كهربائيّة لوضع الممثّلين في ظروف حسنة والقضاء نهائيّاً على ظاهرة رهبة المسرح التي تُربك البعض منهم أثناء الأداء. لا بدّ من الاهتمام بكلّ ذلك.

ولكنْ ليست تلك سوى جزئيّات، نزر ضئيل بالقياس إلى تصميمه الجديد الأكثر فخامة، والمتمثّل في إقامة إنارة ليليّة أرضيّة. وفي هذا الشّأن يكفي إرسال دفقات ذات ذبذبات مرتفعة إلى حدّ ما في الجوّ العالي حيث يخيّم فراغ جزئيّ، وحيث للغازات نفس طبيعة مثيلاتها الموجودة داخل بعض المصابيح التي صمّمها غريغور. علاوة على أنّه بالإمكان بهذه الكيفيّة إنارة المدن دون اللّجوء إلى حاملات المصابيح والفوانيس الكلاسيكيّة، المكلِّفة وغير الأنيقة في الوقت نفسه. يمكن أيضاً إدخال تحسين كبير على أمن حركة النّقل برّاً وبحراً وجوّاً.

في العادة، نادراً ما يبوح لأحد بمثل هذه المشاريع، باستثناء بعض الأخصّائيّين الدُّوَليّين الذين يزورونه. ولكنْ عندما سأله هؤلاء كيف سيقود تلك الدّفقات في مثل ذلك الارتفاع: سهل جدّاً، قال وهو يهزّ كتفيه دون أن يُضيف شيئاً. وتلك نفس المشكلة معه دائماً، إذ لا نعرف

Twitter: @ketab_n

أبداً على وجه الدّقّة هل أنّ ذلك ممكن أم هو من سبيل الحلم إن لم يكن خدعة. وبما أنّ مبدأه الأساس هو ألّا يكشف عن مناهجه بل اختبارها في وضعيّة حقيقيّة، فقد لا ندرك أبداً ما إذا كان فعلاً يريد تطوير كلّ تلك الأشياء أم أنّه يتحايل. في انتظار ذلك، وفي غياب المال، تبقى تلك الأفكار في طور أفكار.

للّحظة الراهنة، بعد أنْ قلّم غريغور أظفاره إلى أدنى حدّ، وغسل يديه مرّة ثانية لتبديد الهباءات التي تجمّعت تحت أظفاره، راح يملّس شعره أمام المرآة قبل التّوجّه إلى المحطّة ليلحق بالقطار السّريع شيكاغو-نيويورك. سوف يعيد التّفكير في كلّ ذلك داخل القطار ويعود إلى فندقه وقتَ العَشاء.

Twitter: @ketab_n

13

عمّا قريب، لن يكون المال هو ما يُعوزه.

بعد سبع سنوات، أصبح غريغور ثريّاً، وبالأحرى ثريّاً افتراضيّاً، فموقعه وهيبته في ويسترن يونيون كانا يسمحان له بأن يعيش بالتّدايُن عيشة مرفَّهة جدّاً. كان له من الثّراء ما مكّنه من الإقامة في والْدورف أستوريا، أفخم فندق في نيويورك وبالتّالي في العالم، حيث يشغل على مدار العام جناحاً واسعاً لرجل أعزب. وكان غالباً ما يتناول عشاءه وحيداً في ساعة محدَّدة ودون أن يفحص قائمة الأطعمة، إذ هو يشكّل الوجبة بنفسه قبل أنْ يوصي بإعدادها عن طريق الهاتف ثُمّ ينزل بعد ساعة بالضّبط إلى قاعة النّخيل- المطعم الأفخم في الفندق الأفخم- حيث يجلس في ركن مولّياً ظهره خشية المضايقة، ولا يقدّم له

Twitter: @ketab_n

الطّعامَ رئيسُ صفّ[1]، إذ اشترط منذ مدّة ألّا يعتني به سوى مدير النُّدُل.

نحن في شهر نوفمبر ولا بدّ أنْ يتناول العشاء هذه المرّة قبل الموعد المعتاد، ذلك أنّ وستنغهاوس أعلن عن زيارته إلى والْدورف في أوّل المساء. هذا التّغيير الطّفيف في التّوقيت مزعج في نظر غريغور رجل النّظام والعادة، ولكنْ اعترافاً منه بالجميل أو بدافع المصلحة، لا يجدر به أن يناقش قرارات المقاول.

عندما ينزل غريغور إلى القاعة، ثَمّة واحد وعشرون منديلاً خالياً من أيّ شائبة، مكدّسة مسبّقاً على المائدة التي أُسندت إليه. قد تسألون، لم كلّ هذ العدد من المناديل لرجل واحد: ذلك أنّ وسواس الميكروبات بلغ به حدّاً جعله، قبل الأكل، ينظّف بنفسه بعنايةٍ لوازمَ مائدته، وصحونها، وكؤوسها، حتّى وإنْ كان كريستال القاعة أشدّ لمعاناً من الأواني الفضّيّة. ولماذا واحد وعشرون تحديداً، قد تُلحّون في السؤال: سبق أنْ قلنا لكم ذلك،

(1) Chef de rang: رئيس الصّف، بلغة المطاعم، هو المسؤول على مجموعة من الموائد، تسمّى صفّاً.

Twitter: @ketab_n

لأنّه يقبل القسمة على ثلاثة. فهو إذن ملائم تماماً، في مثل ملاءمة عنوان مختبره تقريباً، 33 الشّارع الثّالث عشر.

يصقل إذن تلك الأواني واحداً واحداً، وبعد أنْ يُنظّفها، دون أنْ تحتاج إلى ذلك، يحثّ مديرَ النُّدُل بإيماءة موجَزة على تقديم العشاء. ولكنْ، بعد أنْ يُقدّمه له، لا يمكن أنْ يشرع في الأكل ما لمْ يُقدّر أوّلاً- بطريقة منهجيّة وإنْ كانت فوريّة بحكم العادة- حجم كلّ طبق بالضّبط، ثُمّ محتوى كلّ كأس، وحمولة كلّ شوكة، وكلّ ملعقة بالتّحديد. حسابات ضروريّة لأنّه لا يحسّ بالجوع من دونها، بل إنّها هي التي تسمح له في الواقع بتغذية نفسه. فالأكل، باستثناء ذلك ومن دونه، لا يرغب فيه غريغور كثيراً.

وتقدير تلك الأحجام ليس كلّ ما في الأمر إذ ينبغي أيضاً حساب لُقَم الشّوكة مثلما اعتاد على أيّة حال، وبشكل متزايد، أن يَعُدّ كلّ شيء- لم تهدأ الأمور في هذا المجال. عدد خطواته بين الفندق والمختبر، كمّيّة المباني، والعربات، والرّجال، والنّساء، والحَمام- الحَمام خصوصاً- الذي يصادفه في مساره ذاك. لم يكن السّلّم

Twitter: @ketab_n

الآلي قد اختُرع بعدُ في تلك الفترة، ولكنْ حتّى لو وُجد، فإنّ غريغور سوف يحسب درجاته، رغم كونها مهمّةً لا نفعَ من ورائها. وإنْ لم يقم بحساب أنفاسه فليس لأنّه لم يفكّر في ذلك، فهذا أمرٌ مُغْرٍ- ولا يدري بالضّبط هل يلوم نفسه على ذلك أم هو مرتاح إذ عَدَل عنه، يتراوح شعوره حسب الأيّام. إنّه نصيب من الوقت المربوح، على أيّة حال، لأنّ حساب كلّ شيء باستمرار يشغل المرء طويلاً.

الغريب، وهذا أيضاً سبق أنْ قلناه لكم، أنّ غريغور لا ينتهج الأسلوب نفسه مع المال. هو ثريّ وكلّنا نَعلم أنّنا في الغالب كلّما كان لنا مال أكثر حسبْنا أكثر. كان بإمكانه أنْ يكون أكثر ثراءً، ولكنْ يبدو أنّه لا يولي ذلك كبير اهتمام، فهو مرتاح لنمط عيشه دون أنْ يُبديَ رغبة في تحسينه. بخلاف الوقت، إذ هو يعُدّه طبعاً دون تراخٍ منذ ما يقارب خمسين عاماً. ولكنْ إذا كان ينظر إلى ساعته كلّ ثلاث وثلاثين دقيقة، فليس إلّا للتّثبّت: يَعلم دوماً الزّمن الذي هو فيه بالتّحديد، في كلّ لحظة، فهو يملك ساعة مطلقة مثلما يملك آخرون الأذن. وإنْ فحصها منذ حين فلأنّه سوف يلتقي بعد العشاء، هذه اللّيلةَ في جناحه، بجورج

Twitter: @ketab_n

وستنغهاوس- الذي توحي نبرة رسالته التي حدّد فيها هذا الموعد بأنّ له أسباباً وجيهة وراء رغبة الحديث إليه.

السّاعة قربت، غادر غريغور مائدته، عبَر البهو حتّى المصعد الذي يكره استعماله، ولكنْ ما باليد حيلة، فنيويورك عموديّة، ثُمّ لمس صبيّ المصعد طربوشه معلِناً عن الطّابق الحادي والعشرين. أخرج غريغور مفتاحه من جيبه قبل أن يدخل سكنه، جناحٌ غير ضخم ولكنْ لا يهمّ ما دام في والْدورف، وحسنٌ للغاية رغم كلّ شيء. دعنا من السّتائر والبُسُط الجداريّة واللّوحات الفنّيّة على الجدار والتّحف، هي في الواقع غرفة نوم واسعة يتقدّمها صالون تشغل مساحته المتوسّطة ثلاث أرائك ومنضدة كتابة بأسطوانة وخزانة صغيرة. وما كاد يجري بعض ترتيب- ولو أنّ كلّ شيء لدى غريغور مرتّب- حتّى سمع طرقتين جافّتين على الباب، فذهب يفتحه.

بدا السّيّد وستنغهاوس مُحرَجاً قليلاً، متضايقاً، غير مرتاح، حتّى بعد أنْ عرض عليه غريغور أفضل أريكة، ثُمّ سيجاراً، ثُمّ هل يريد أنْ يشرب قدحاً من شيء ما- قوارير ويسكي، بوربون، كونياك، براندي قائمة على

Twitter: @ketab_n

صينيّة مخصّصة للزّوّار. وهو جالس، قبِل وستنغهاوس بسيجارٍ وقدحٍ ولكنْ، وكأنّما ربحاً للوقت، ودون أن يولّع ذاك أو يرفع هذا إلى شفتيه، أبدى بعض الثّناء على سكن غريغور، ولو برتابة وآليّة، قل لي، جميل سكنك، أنا مسرور بأنّ إقامتك على ما يرام. إلّا أنّه فيما يبدو يَجهد في إيجاد كلماته. أخيراً وجدها ولكنّ الكلمات كانت تتوالى بصعوبة، تنقطع أحياناً منذ المقطع الأوّل، وأحياناً بالعكس تتدافع فيما بينها، وأحياناً تستغرق وقتاً عجيباً قبل أن يتنازل بعضها لبعض عن حقّ الصّدارة. كلّ ذلك تقطعه نحنحة طويلة ونخير جافّ. في حقيقة الأمر، باختصار، هذا ما حدث.

لمناسبة تحيين بعض الملفّات، وقع مصرفيّو وستنغهاوس على عقد موقَّع مع غريغور قبل خمس عشرة سنة خلت، وقد تناساه الجميع في غمرة الفرح بالشؤون التي ما فتئت تزدهر. وفق هذا العقد، ولا نتذكّره إلّا لماماً، يحقّ لغريغور أن يقبض دولارين ونصف الدّولار عن كلّ حصان بخاريّ يباع، مبلغ رمزيّ لم يكن يثير وقتها أيّ مشكل. غير أنّ الأمور سارت بشكل أفضل بكثير ممّا كان يُتصوَّر

Twitter: @ketab_n

عند الانطلاق: فخلال الأعوام الخمسة الأخيرة، بيعت من تلك الأحصِنة البخاريّة كمّيّات خياليّة غير متوقَّعة، إلى درجة أنّ المصرفيّين حسبوا، مروَّعين، الحقوق المتراكمة، التي لم تدفع حتّى تلك اللّحظة لغريغور: كانت تتجاوز اثني عشر مليون دولار. إذا دُفعت تلك الحقوق، وهو ما يمكن أنْ يُطالب به غريغور، فسوف يصبح من أثرى الرّجال في العالم ولكنْ هذا يمثّل ثقلاً لا طاقة لويسترن يونيون على تحمّله. ومن ثَمَّ نصح أولئك المصرفيّون بحَميّة بالتخلّص من ذلك العقد ولكنّ وستنغهاوس، المحرَج، لا يمكنه السّماح لنفسه بطبيعة الحال بفسخ العقد من جانب واحد. هذا لا يعُقل، هناك قوانين. هناك قضاة، هناك محاكم وعقوبات. وهناك خاصّة غرامات يمكن أن تزيد في إثقال كاهل المؤسّسة.

هكذا شرح الوضع لغريغور الذي استمع إليه برصانة حتّى النّهاية، دونما كلمة. ثُمّ نهض واتّجه نحو الخزانة وهي من النّوع البسيط، دون قفل ولا تركيبة سرّيّة، لا شيفرة ولا رموز ولا أيّ شيء، وهي إلى ذلك مفتوحة على الدّوام. أخرج منها العقد ثُمّ قرأه سريعاً وهو مُوَلٍّ ظهره

Twitter: @ketab_n

قبل أن يلتفت إلى المقاول. سيّدي وستنغهاوس، قال له، أنت الوحيد الذي آمن بي. ساندتَني، ساعدتَني، ورضيتَ أن تمنحني صداقتك. كلّ ما أطلبه منك الآن هو أنْ تسعى جهدك كي يغنم العالم كلُّه تيّاري المتناوب. أمّا الباقي، فلا داعي للحديث عنه.

وبعد أن صرّح غريغور بذلك، مزّق العقد رسميّاً. أي أنّ الضّربات السيّئة، أحياناً، هو الذي يتسبّب فيها. كأساً أخرى؟

Twitter: @ketab_n

14

تمّ الاتّفاق على تدبير يقضي بأن تصرف وكالة ويسترن يونيون لغريغور مبلغاً اتّفاقيّاً مقدارُه مائة وثمانية وتسعون ألف دولار لشراء كلّ حقوقه. مبلغ هزيل قياساً بما يَستحقّ قانوناً ولكن كأنّه لم يَنتبه. لمّا كان سيّئ الطّبع وواثقاً من نفسه إلى ذلك الحدّ، ومسكوناً بفكرة عن شخصه لا يدانيها في العلّو سوى احتقاره للآخرين، كان متوقّعاً أنْ يفاوض بصلابةٍ على استحقاقاته، ولكنْ لا، يبدو أنّه لم يستخلص عواقب تقديره لذاته في الحياة المادّيّة. لا ريب أنّه كان يعرف ما يصنع، بطبيعة الحال، يعرف بالتّأكيد: هو أوّل من طوّر استعمال الكهرباء فيما وراء تطبيقاتها الحراريّة والمضيئة. هو رائد ما سوف نسمّيه في يومٍ ما الكلّ الكهربائيّ. بصفته تلك، كان يمكن أن يغتنم

Twitter: @ketab_n

ابتكاراته بصورة أفضل، أنْ يطلب على الأقلّ نسبة مئوية طفيفة. تقاسم الأرباح مثلاً، ولو في شكل ريع صغير وحتّى مجرّد زيادة، لستُ أدري. ولكنْ لا، فقد قنع بذلك.

لئن لم يكن يلهث وراء المال، فربّما لأنّه يريد فقط ألّا يجد لزوماً للتّفكير فيه. حسْبُه أنْ يعيش في والْدورف، في نسقٍ عالٍ- بالتّداين دوماً نظراً لمكانته- وخاصّة أنْ يتمتّع بحرّيّة تامّة في مختبره. وربّما أيضاً أنّه لا يجد الوقت لذلك.

ففي الأعوام العشرة التي تلت، خطرت بباله مجتمعةً أفكارٌ عديدة، عديدة حقّاً. ولكنّ عادته الغريبة بتصميم أشياء باستمرار وفي نسق سريع يعارض فكرة أنْ يقف على أحدها ويُطيل. عدد مفرِط من التّصوّرات المستقبليّة يزدحم في ذهنه دون تنظيم، وبوفرة تمنعه من أن يعمّقها واحداً واحداً، ويطوّر تطبيقاتها العمليّة ويستغلّ قيمتها التّجاريّة. ليس لكونه لا يعي تلك القيمة، بالعكس، وإنّما لأنّه لا يجد متّسعاً من الوقت. لا يجد الوقت إلّا لتسجيل البراءات ثُمّ إعلام الصّحافة بشكل مثير، كما يهوى دائماً، قبل أنْ يلتفت إلى ناحية أخرى.

ذلك أنّ غريغور ربّما لا يخترع أشياء ملموسة ولكنّه،

Twitter: @ketab_n

في نطاق الاكتشاف وحدس الأشياء، يكتفي بإلقاء الفكرة التي ستُنتجها. وهو مخطئ، إذ كان يسير بسرعة فائقة، ولا بدّ أنْ يتوقّف خمس دقائق عند أحدها لكي يقودها إلى منتهاها ويطوّرها، ويستكشفها لا سيّما أنّ محتواها في كلّ مرّة ظواهر منذورة لمستقبل واعد، فلتحكموا بأنفسكم. الراديو. الأشعّة السّينيّة. الهواء السّائل. أداة التحكّم عن بُعد. الإنسان الآليّ. المجهر الإلكترونيّ. مسرِّع الجزيئات. الإنترنت. وما إلى ذلك.

نحن نعرف جيّداً أنّ النّاس تفكّر، دائماً، في الشّيء نفسه، في اللّحظة نفسها. على أيّة حال قد يوجد على الأقلّ شخص واحد له نفس فكرتك. ولكنْ يوجد دائماً شخص آخر أيضاً يستطيع، بنفس الفكرة التي خطرت ببال الآخرين، أن يكون أكثر صبراً، وأكثر منهجيّة أو حظّاً، وأحسن فطنة وأقلّ تشتّتاً من غريغور، فلا ينذر جهده إلّا لها فيفوق الباقين جميعاً بإنجازها. وهو، بصفته الأوّلَ، من يعطي اسمه لتلك الفكرة. وهو الذي يضعها في السّوق، والذي يتاجر بها، والذي يقبض. قد لا يستوجب ذلك أحياناً غير اسم. لنأخذ السّينما، مثلاً. كانت مجموعة

Twitter: @ketab_n

كاملة قد اخترعتها في الوقت نفسه، ولكنْ يوجد بين تلك المجموعة أخَوان يسمّيان لوميير. فالمسألة كلّها مرهونة في أشياء ضئيلة، أليس كذلك، ويكفي لذلك شيء في غاية البساطة: يمكن أن نتخيّل أنّه ليس غريباً، باسم شهرةٍ كهذا، أن يكونا هما من فازا بالقضيّة[1].

ذلك ما حصل مع غريغور: سوف يستحوذ الآخرون على أفكاره فيما هو يواصل حياته في غليان. ولكنْ أنْ تُغلّي ليس كلّ شيء، إذ يجب بعده أنْ تُصفّيَ، وتُرشِّحَ، وتجفّفَ، وتَهرسَ، وتَرحيَ وتُحلّل. احسبْ، زِنْ، تقاسَمْ. غريغور لا وقت له للاهتمام بكلّ ذلك. أمّا هم، في ركنهم، فيُخصّصون كلّ وقتهم ليوصلوا أفكاره إلى غايتها، فيما يكون هو قد ارتمى لاهثاً على شيء آخر. وتسجيل البراءات لن يُجديَ نفعاً، ولن يَمنعَ رونتغين[2] من ادّعاء الأشعّة السّينيّة لنفسه، ولا ماركوني[3] من ادّعاء اختراع الرّاديو.

(1) اسم شهرة الأخوين لوميير Lumière يعني «نور»، وهو ما يوظّفه الكاتب في عبارته.

(2) فيلهيلم كونراد رونتغين Wilhelm Conrad Röntgen (1845–1923) عالم فيزيائيّ ألمانيّ ينسب إليه اكتشاف الأنشطة الإشعاعية. أوّل فائز بجائزة نوبل للفيزياء عام 1901.

(3) غوليلمو ماركوني Guglielmo Marconi (1874–1937) فيزيائيّ =

Twitter: @ketab_n

ذلك أيضاً أنّ غريغور يبالغ نوعاً ما، مع ذلك النّزوع الدّائم إلى تقديم اكتشافاته بصخب، فهو أقلّ حرصاً على التّشبّث بها من قرع الصّنوج لإحداث أكبر ضجّة ممكنة. دون أن يقتّر في غلوّه، متقدّماً فوق الحدّ دونما خوف من المبالغة. الرّوبوت مثلاً، ما إنْ صاغ مفهومه حتّى هرع إلى المصوّرين هاتفاً إنّه سوف يقدّم عمّا قريب رجلاً آليّاً إذا تُرك لحاله تصرّف وكأنّه وُهب عقلاً، دون أن تُملى عليه إرادة خارجيّة. حسناً يا غريغور، نحن لم نبلغ ذلك اليوم، ولو أنّه في يوم ما، من يدري.

ولكنّ له خاصّة انشغالاً أكبر، كان أعدّه انطلاقاً من وشيعة ذات مغناطيس كهربائيّ، براءة اختراع رقم 512.340، بفضلها يمكن إنتاج كمّيات هامّة من الطّاقة بلا تكاليف، يكفي جزءٌ صغير منها للمحافظة على اشتغاله. فكرة عظيمة. مثل سيّارة ذات خزّان ملآن لأنّه يتجدّد

= ومخترع ورجل أعمال إيطاليّ ينسب إليه اختراع الاتّصال اللّاسلكي والرّاديو والفونوغراف حيث أسّس شركة «باتي ماركوني للأسطوانات» مع الفرنسي إميل باتي. مُنح جائزة نوبل للفيزياء عام 1909 بالاشتراك مع الفيزيائي الألماني كارل فرديناند براون Karl Ferdinand Braun (1850–1918).

Twitter: @ketab_n

على الدّوام، ولا يستهلك رغم ذلك سوى لتر في المائة. ستكون تلك أوّل لبنة في غرضه الأساسيّ: نظام يسمح للجميع بالحصول مجّاناً على الطّاقة الحرّة.

وذلك يدلّ على تصوّره الغريب للمال. إذ أنّ وجهة النّظر هذه لا تتّفق مع تلك التي يحدّدها المنطق التّجاريّ والمصلحة. وإذا كانت الصّحف قد أُعجبت سريعاً بهذه الفكرة، وأعلنت أنّ غريغور سوف يمدّ بالكهرباء الأرضَ كلّها، وأنّه وجد وسيلة لنقل طاقة كونيّة دون أن يُكلّف ذلك أيّاً كان شيئاً، فلنا أنْ نتخيّل، عند سماع هذا الخبر، كيف أنّ ملفّات الحسابات، داخلَ مجالس إدارة الشّركات المسّجّلة في البورصة، فُتحت، والوجوه انغلقت، والأصوات ارتفعت لتقترح اتّخاذ إجراءات وتوصي بالاجتماع لدرس حالة هذا الشّخص عن قرب.

في تلك الأثناء، وقتَ الأماسي، وفي جوّ غبطة النّجاح المعتادة، كان غريغور يواصل في الغالب استقبال مشاهير في مختبره، حيث يقفون في فرحٍ من أجل أوّلِ صوَر مضاءة بمصابيح من الغاز القابل للاحتراق. وكانوا لا يزالون يحبّون دائماً رؤية غريغور وهو يعرض نفسه مزهوّاً تحت

Twitter: @ketab_n

وابل من الشّرر الذي تُنتجه محوِّلاته ذات التّردّد العالي، أو وهو يرفع أحد أنابيبه الزّجاجيّة الطّويلة اللّامعة، ولكنْ دون أن تكون يده الأخرى، هذه المرّة، موصولة إلى أيّ كبْل: تطوّر غريب.

بعد أن غادر مكتبه، تنبّه إلى حمامة جريحة لاذت بركن من الرّصيف، خلف صندوق قمامة، جرّت نفسها إليها كأنّما كي تموت هناك في سلام. ولمّا انحنى عليها غريغور، شخّص كسراً في جناحٍ وساقٍ، ولكنّ الحمامة نظرت إليه نظرة خالية من الوهم، كأنّها تنصحه بتركها وشأنها قبل أن تُشيح عنه عينها المدوّرة. إلّا أنّ الحمامة، وغريغور يواصل فحصها، بدت متأثّرة بهذه اللّفتة، إذ أعادت النّظر إليه، وتطلّع أحدهما إلى الآخر طويلاً كأنّهما سيتبادلان بعض الكلام.

رفع الحيوانَ بلطفٍ، ولفّه في أحد مناديله النّقيّة الثلاثة ثُمّ وضعه برفق تحت ثنيَة سترته، قريباً من إبطه وكأنّه يَرحمه. بعد ذلك، ودون أدنى تفكير في الميكروبات التي يخشاها أيّما خشية- والتي نعرف أنّها تتوافر بكثرة في ريش تلك الحمائم القذرة، المغزوّة أيضاً بالبراغيث والقراد والبقّ

Twitter: @ketab_n

والقمّل الأحمر والقمّل الطّاحن-، حمله معه إلى الفندق.

عندما وصل إلى غرفته بوالْدورف، بنى للحمامة في البداية، وكان ماهراً في التّرميق والتّرقيع، ما يشبه العشّ بواسطة الأغطية والكرتون، ثُمّ شرع في إخراجها من مأزقها. كان لا بدّ أوّلاً من تطهير الطّائر ثُمّ تغذيته قبل تسوية أعضائه المصابة بواسطة جبيرة صغيرة، وتركيبة مسامير وأعواد ثقاب مشدودة بسلك مطّاط.

وبما أنّ غريغور ليس رديئاً أيضاً في علم الأحياء، فقد رتّق الحيوانَ خلال النّهار، وحرصاً منه على احترام قانون الفندق الذي يحرّم وجود الحيوانات داخل الغرف، بنى له قفصاً قام بنقله خفيةً إلى سقف البناية. وبعد ثلاثة أيّام من النّقاهة، أطلق الحمامة وقد تعافت تماماً. ولم يتأسّف لذلك.

Twitter: @ketab_n

15

جدول أوقات أنغوس نيبر، صبيحة هذا الثّلاثاء، يُظهر شدّة ازدحامه بالمهامّ.

ينبغي عليه أنْ يَحضر على التّوالي اجتماعَ رؤساء أعمال، وحفلَ كوكتيل مؤّسسة ثُمّ غَداءً لسادة المجتمع، في ثلاثة أماكن مختلفة من نيويورك، ولكنْ لحسن حظّه ليست بعيدة كثيراً بعضها عن بعض. لذلك، في هذا الصّباح، وأمام خزانة ملابسه، ألّف لنفسه لباساً يناسب تلك الاجتماعات، فهو يمزج بين الصّرامة الإداريّة- كسوة ذات قطع ثلاث وربطة عنق سوداء- والرّفاهية الأكثر راحةً رغم كونها مُلزِمة هي أيضاً للكوكتيل: منديل صغير في الجيب الأعلى وربطة عنق ملوّنة، مزدانان بنفحة من أناقة المجتمع الرّاقي، وزهرة في عروة السّترة وربطة عنق

Twitter: @ketab_n

فانتازيّة تحسّباً للغَداء. ليس الأمر سهلاً ولكنّه توصّل إليه، متوقّعاً تغيير ربطة العنق مرّتين خلال تنقّلاته في الكبريلة[1]، وإضافة الزّهرة، في المحلّ الأخير.

ينتظم اجتماع رؤساء المؤسّسات في مقرّ جنرال إلكتريك، القوّة الدّاعية. هناك يوجد مختلف مديري الشّركات التي تستثمر موارد الطّاقة- بترول وفحم وغاز وخشب-، ووسائل النّقل- الحديديّة والبحريّة-، والاتّصالات والأملاك العقّاريّة- التّصرّف في الإرث والبناء-، ومن بينهم طبعاً على رأس القائمة توماس إديسون نفسه، فهو الذي دعاهم جميعاً. ومثلما توقّع أنغوس، كانت الأحاديث مركّزة فقط على آخر تصريحات غريغور. عند ذكر هذه المسألة، ازدادت الوجوه عبوساً والأصوات حدّة خصوصاً أنّ مسألة الطّاقة الحرّة تلك كانت موضع خلاف في وجهات النّظر. إذا كان بعضهم لا يزالون يعتبرون غريغور مُشعبِذاً متوهّماً- الاكتشاف المزعوم الذي أعلن عنه لا يستقيم في نظرهم-، فإنّ آخرين يستدلّون بنجاحه غير المتوقّع داخل ويسترن يونيون

(1) Cabriolet: سيّارة بسطح قابل للطّيّ.

Twitter: @ketab_n

لإبداء المخاوف بشأنه: لقد برهن الرّجل على قدرته على الابتكار، وحصل على نتائج فعليّة وهذه الفكرة، فكرة طاقة بأقلّ التّكاليف، الفكرة المجنونة، الخطرة، يمكن في النّهاية أن تتحقّق. وسط الهيجان الجماعيّ، تسلّل أنغوس نيبر مستعمِلاً مرفقيه حتّى وصل إلى توماس إديسون.

لم يُعِرْه إديسون في البداية نظرة، ولكنّ أنغوس توصّل إلى لفت انتباهه ثُمّ محادثته بإعادة كلامه عدّة مرّات نظراً لصَمَم المخترع، مع الحرص على ألّا يسمع كلامه شخص آخر- باختصار هي مسألة أكثر تعقيداً من صبيحة اليوم أمام خزانة ملابسه. ولكنْ، بعد أنِ استرعى أنغوس اهتمام إديسون، مال عليه هذا وانقاد وراءه حتّى ركنٍ من قاعة المحاضرات أكثر هدوءً. بعد محادثة مقتضبة، نطق إديسون ببضع كلمات لا تُسمَع وسط الضّجيج ولكنّها تنمّ فيما يبدو عن موافقة. موافقة شاردة، لطّفتها إشارة ارتداد كالتي نأتيها للدّلالة على أنّنا لسنا مسؤولين، وأنّنا نفوّض في القضيّة سوانا ثُمّ نَنفُض منها أيدينا، قبل أنْ يبتعد على الفور. غير أنّ تلك الإشارة وتلك الكلمات كانت كافية فيما يبدو بالنّسبة إلى أنغوس، فبعد أنْ حنى رأسه احتراماً،

Twitter: @ketab_n

وأيقن أنْ ليس ثَمّة ما يُبقيه، غادر الاجتماع خِفيةً ليوقف كبريلة أسفل العمارة.

في حفل كوكتيل مؤسّسة وستنغهاوس، كان الجوّ مختلفاً تماماً. فلا حديث عن غريغور إلّا للإشادة عند الاقتضاء بإسهامه الجليل في مكاسب الشّركة- والملاحظ أنّهم يُفسحون له المجال كي يحكي ما يريد. ويُطلقون بالعكس سجيّتهم للفرح بحصولهم على شبكات كهربائيّة لا تفتأ تتّسع، وبناء وحدات إنتاج لا تني تكبر، ونجاحهم في تطوير تقنيات جديدة للتُّرْبينات[1] البخاريّة والتّخطيط للتفرّد بدَفْع السّفن الشّاحنة، وسفن النّقل والمراكب الأخرى الكبيرة الحجم. كانوا يرفعون الأنخاب الواحد تلو الآخر، فلم يُطِلْ أنغوس بقاءه.

حان وقت تناول غداء شبيهٍ بتلك التي تُنظَّم عادة في الصّالونات الخاصّة أو في مطاعم الفنادق حول غريغور، المحاط في الغالب بنجوم يتجدّدون بانتظام- مارك توين، مثلاً، في ذلك اليوم- ولكنّه محفوفٌ دوْماً بمقرّبيه، حراسته الخاصّة المختزلة في الزّوجين أكسيلرود اللذين اتّجه أنغوس

(1) Turbine: التُّرْبينة هي محرّك ذو دولاب يُدار بقوّة الماء والهواء أو البُخار.

Twitter: @ketab_n

نحوهما مباشرة. قرابة خمسة عشر شخصاً يتحادثون فيما بينهم وإنْ كانوا ملتفتين خاصّة نحو غريغور الذي يجذب وحده كمغناطيس الانتباه العامّ، والحال أنّ فنّ إغرائه متناقض: فهو نشيط ولامع، وحتّى مشوَّش، بقدر ما هو رزين ومتحفِّظ، وحتّى جافّ، أو مُغتمّ وغامض، وحتّى عويص، يعرف كيف يأسر الجميع ولكنّه يعيش وحده، يجذب النّاس الأكثر اختلافاً، رجالاً ونساءً دونما تمييز.

نساء لا يستهان بعددهنّ كنّ فعلاً هناك، كثير من المتزوّجات ومن الحُرّات أيضاً استسَغْن غريغور فرُحْن يُقلّبن نحوه نظرات ناعمة، مُحترِسة ولكنّها راغبة- عيون الزّوجات ترنّ على نفس المفتاح الموسيقيّ وإن بفيبراتو[1] أقلّ. ولحسرتهنّ جميعاً، يبدو أنّ غريغور، من بين مساوئ طبعه، لا يميل كثيراً إلى الملامسة الجسديّة، هو لا يتجنّبها لأسباب صحّية بل على سبيل الخِشية- فلا شيء يعادل في رعبه الشّعرَ، المُريعَ بالنّسبة إليه كرعب الخيوط الكهربائيّة العارية بالنّسبة إلى كلّ من عَداه. ثُمَّ هناك كُرهه المطلَق

(1) Vibrato: تغيّر دوريّ منتظم لصوت نوتة موسيقيّة بحسب طبيعة الآلة وتقنية العازف.

Twitter: @ketab_n

للمجوهرات التي يُزعجه رنينُها، ويُعشي بصرَه لمعانُها ويُذهله ثمنُها. تُروّعه الأقراط بوجه خاصّ، ويُجمّده شِصُّها المغروز في اللّحم، وكذلك اللآلئ، بأصلها الصّدَفيّ ولونها اللّبنيّ، فهي تثير في نفسه اشمئزازاً تامّاً. إلّا أنّ شخوص الجنس الآخر لا يَأبَهن بذلك ويتنافسن في طقوم المجوهرات لإغرائه، ويلعبن هكذا كلّ مرّة بعضهنّ ضدّ بعضٍ قبل أنْ يَرجعن خائبات، يُخفين روعهنّ تحت غمزات متواطئة وإنْ كانت مطفأة، وضحكات متغنّجة وإنْ كانت فقدت رنين صوتها.

وحدها إيتيل أكسيلرود تُعجب غريغور في الواقع: أنيقة برصانة- قارئة مواظبة لـ«هاربرز بازار»[1]- ومزوَّقة لماماً، لا تلبس، يا للأسف، شيئاً أبداً ما عدا خاتم زواجها الذي يُعقّد كلّ شيء، فصداقة الرائع نورمان تَمنع غريغور من أيّ تجاوز. قد كان يسمح لنفسه في ظروف أخرى أن يخادع زوجة رجل آخر أمّا هنا، مع هذا الزّوج، فكلّا. حتّى وإنْ كان يُجسّد أيضاً، ويُحسّ أنّه يجسّد الرّجل المثاليّ

(1) Harper's Bazaar: مجلة أمريكيّة للموضة النسويّة، أسبوعيّة عند تأسيسها عام 1867، ثمّ شهريّة منذ 1901 إلى الآن.

Twitter: @ketab_n

لديها، فإنّ من المستحيل أيضاً بالنّسبة إلى إيتيل، ولها مِثلُ هذا الزّوج، إلخ.

هذا الزّوج كان قد تبادل للتّوّ بعض كلمات مع مارك توين حول أحداث هذا العام، مستنكراً بالأساس الحرب ضدّ إسبانيا. مارك توين كان يدعو إلى التّحالف، مثل وليم جيمس[1]، ضمن رابطةٍ مناهضةٍ للإمبرياليّة، فيما كان نورمان يسخر بهدوء من ضعف الجيش الأمريكيّ في مجال التّجهيز الصّحّيّ، إذ قُتل نحو أربعمائة جنديّ في المعركة من جملة خمسة آلاف ماتوا بالحمّى الصّفراء، والزّحار والتّسمّم الغذائيّ. لم يكنْ لأنغوس من غاية، وهو يحاول أنْ يَعلَق بهذه المناقشة، سوى التسرّب إلى دائرة الزّوجين أكسيلرود لكي يتوجّه بالخطاب بعدئذ إلى إيتيل، ولكنْ دون جدوى إذ ظلّت ترنو بإصرار إلى غريغور مثل إبرةٍ بَوصلةٍ عنيدة.

غادر أنغوس المائدة قبل نهاية الأكل مُهمَلاً، متردّياً إلى شيء لا قيمة له، محاولاً أنْ يسيطر على مرارته وإذلاله، بتعلّة

(1) William James (1842–1910) عالم نفس وفيلسوف أمريكيّ والأخ الأكبر للرّوائيّ الشّهير هنري جيمس.

Twitter: @ketab_n

لم يسأله عنها أحد. نادى كبريلة أخرى، واقتيد بتصميم إلى مكاتب جنرال إلكتريك ليواصل عمل المُخبِر، فيما كان غريغور بعد التّحلية، والقهوة والمشروبات الرّوحيّة التي طالما امتنع عنها، يعود وحيداً بإصرار إلى المختبر.

Twitter: @ketab_n

16

عندما عاد غريغور إلى المختبر، في ظهيرة تلك الثّلاثاء، اقتعد كرسيّاً بدل الإقبال مباشرةً على العمل، وقد داخلته كآبة خفيفة. كلّ تلك الاجتماعيّات. كم هو متعِبٌ أنْ يكون المرء داخل ذاته على الدّوام، دون سبيل للخروج منها، أنْ ينظر دوماً إلى العالَم من خلال هذا الغلاف الذي ننحبس فيه، ولا يقدر أنْ يُظهر من ذاتِه لهذا العالَم سوى مظهر خارجيّ مزوّق بقدرٍ أو بآخر مستعيناً بالمرايا. ما عادت له رغبة في أيّ شيء، فجأةً. نوبة حزن خفيفة.

غير أنّ الكسل ليس من طبعه كما أنّه يجهل كلّ شيء عن السّآمة، لانشغاله في العادة بحبل أفكاره التي تعمل بمفردها كامل الوقت، رغم كلّ شيء، دون أنْ يقرّر ذلك. تموّجت عيناه في المختبر الذي تخترقه عموديّاً ركيزة عظيمة

Twitter: @ketab_n

من الصُّلْب تَشدّ كامل البناية طابقاً طابقاً في شكل عمود فِقريّ، وتوقّفتا عند تلك الرّكيزة ليقلّب فيها النّظر. وإذ عبرت ذهنَه فكرةُ تجربة، نهض ليفتّش في صندوق أدوات حيث عثر بعد تقليب على ما كان يبحث عنه: نَوّاس[1] كهربائيّ آليّ صغير من صُنْعه، لا يفوق حجمه لعبة من اثنتين وخمسين ورقة.

وبعد أنْ ثَبّت غريغور النَّوّاس إلى الرّكيزة بأحزمة ثُمّ شغّله، عاد إلى كرسيّه حيث انتظر، بحبّ استطلاع، أنْ يرى ماذا يمكن أنْ يَحدث. وها أنّ الأشياء الصّغيرة المبعثرة هنا وهناك داخل المختبر جعلت، تحت التّأثير الاهتزازيّ لهذا الجهاز البسيط في ظاهره، تُرجّع الرّنين شيئاً فشيئاً الواحدة تلو الأخرى، رآها تهتزّ ثُمّ ترتجف، وسمِعها تَهمس ثُمّ تُدمدم. وما لبث الرّنين أن انتشر إلى الأشياء الأكبر حجماً، من الأثاث إلى الأجهزة، إذ شرعت تهتزّ هي أيضاً بازدياد، متمايلة إلى حدّ الانثناء. من مقعده، رأى غريغور أنّ لهذه الظّاهرة أهمّيّة، ناسياً تماماً نوبة حزنه.

ولكنّ ذلك التّذبذب ذا التّردّد المنخفض جدّاً، انتقل

(1) Oscillateur: آلة تُحدث تيّارات كهربائيّة متذبذبة.

Twitter: @ketab_n

تدريجيّاً، دون علم غريغور، إلى الرّكيزة نفسها، فبدت على وشك التجوّف بشكل لا يُدرَك في البداية. ومن ثَمّ لم يعد هناك ما يمنع انتقال تلك الحركة إلى السّرداب، الذي بدأ يَرجف بدوره، قبل أن تمتدّ تباعاً إلى بنى مانهاتن الجوفيّة وكأنّها تحت تأثير زلزال- لا يجهل أحد أنّه يزداد قوّة عند ابتعاده عن مركزه السّطحيّ[1]. وبطريقة غير محسوسة ثُمّ بادية أكثر فأكثر، بدأت عمارات الجوار ترتجّ، وتتصدّع، وتنشقّ، ونوافذها الزجاجيّة تنفجر فرادى في البداية ثُمّ مجتمعة.

وما هي إلّا دقائق معدودة حتّى نزل سكّانها السّلالم في فوضى ليلتقوا في الشّوارع، أغلبُهم ثابت والأنف مرفوع نحو الواجهات المتحرّكة، فيما كان الآخرون يهرعون لإنذار السّلطات. لنلاحظْ بسرعةٍ وجودَ الفتى أنغوس وسط ذلك الجمع، فقد هبّ مسرعاً، والخوف على محيّاه كالعادة ولكنْ دون زيادة. وما لبث أن التحق به رجلان من معارفه في الظاهر، أحدهما يبدو متنكّراً في هيئة تابع أمينٍ والثّاني في هيئة باحثٍ عن شغل- في الواقع أحدهما

(1) Epicentre: سطح الأرض الواقع فوق بؤرة الزّلزال مباشرة.

Twitter: @ketab_n

قاطع طريق والثّاني عاطل عن العمل، ذلك هو الوضع الاجتماعيّ الذي يخصّ كلّ واحد منهما.

في مخفر الدّائرة، وبعد أن ثبت أنّ هذا الزّلزال غير العاديّ لم يُصب الأحياء الأخرى من المدينة، لوحظ أنّه يقتصر على محيط العمارة التي توجد بها تجهيزات غريغور. ولمّا كان غريغور قد نال سُمعة راسخة لِما يمكن أنْ نُطلق عليه عالِماً مجنوناً، فقد اتّجهت الظّنون بسرعة نحوه وكُلِّفَ مبعوثان ليتأكّدا ممّا إذا لم يكن له دور في ذلك. في بنايته التي تهتزّ أقلّ من المباني المجاورة، وبما أنّه في البداية لم يكن قد اطّلع بَعدُ على أهمّيّة الظّاهرة، استبدّ به قلقٌ حينما أحسّ بالدّويّ الهائل الذي بلغ جدران المختبر وأرضيّته، حيث اهتزّت حتّى الصّور المعلّقة في الجدران داخل أُطرها مثل أفلام قصيرة تُعرض، حتّى المناخ والهواء نفسه كأنّهما بدآ يَهدران، إحساس مُكدِّر جعله يضع حدّاً للتّجربة.

عندما اقتحم الشّرطيّان مختبره، كان غريغور قد قرّر تحطيم النَّوّاس بمطرقة. طردهما بغلظة في انتظار إبداء موقفه، وهو ما لم يتأخّر: كان الصّحافيّون والمصوّرون قد أقبلوا مثلما كان متوقَّعاً، فارتجل كالعادة في مثل هذه

Twitter: @ketab_n

الظّروف، بأسلوب المصاب بجنون العَظمة والمتكبّر، ندوة صحافيّة- مُعلناً عن اكتشافه أسلوباً يدمّر في بضع دقائق، هذا إن استغرق كلّ ذلك الوقت، جسرَ بروكلين أو نيويورك وورد بيلدينغ[1]، حسب الاختيار وحتّى الاثنين معاً وفي الوقت نفسه إن شئنا. وهذا ليس من شأنه أن يُحسّن سُمعته، ولكنّ غريغور، وقد فهمنا ذلك، لا يبتغي الكتمان على وجه الخصوص، بل العكس. وبعد هذا الحادث بقليلٍ نشب حريق في مختبره.

قد يجوز التّفكير في أنّ تجارب غريغور صارت من الخطورة ما لا يسمح لها بالاستمرار في مدينة كبيرة، وسط أهالٍ سليمي النيّة. ولا ننسَ أنّ وشائعه التي تُنتج جهوداً بعدّة ملايين الفولتات، تُطلق أقواساً ضخمة قادحة، وبروقاً بطول عدّة أمتار. وليس مُستبعَداً أنّ ذلك الإسراف يمثّل مخاطر لا تني تتزايد، وأنّ حادثاً يمكن أنْ يقع، حتماً، في هذا اليوم أو ذاك. يمكن أنْ نقول ذلك لأنفسنا. يمكن أنْ نتساءل أيضاً عن وجود العاطل عن العمل في المنطقة، في ذلك المساء، يتأمّل الحريق وهو يَبرد أظفاره جنب قاطع

(1) The New York World Building مبنى نيويورك العالميّ.

Twitter: @ketab_n

الطّريق، وكلاهما كانا يرافقان أنغوس في ذلك اليوم. وأيّاً كان المصدر، فالحريق لم يُراعِ شيئاً: إذ دمّر الماكنات، وميّع الأدوات، وأحال الملفّات والمحفوظات رماداً، وسحق في بضع ساعاتٍ كلّ الأعمال الجارية والمشاريع.

ضربة لئيمة أخرى لغريغور الذي، رغم ما ساوره من شكّ ولكنْ دون أن تَخمد همّته أبداً، طلب النّصح من محاميه. بدل المجازفة بملاحقات قضائيّة، اقترح عليه المحامي أن يبحث له عن مقرّ عمل جديد أكثر عزلة، وأبعد مسافة. وبما أنّ هذا الرّجل كان مُساهماً في شركة كهرباء على بعد ألفي كيلومتر من نيويورك، فقد عرض عليه أنْ ينزل هناك، في كولورادو سبرينغس، حيث ستمدّه شركته بالتّيّار مجّاناً. بصراحة، قال غريغور، تغيير الجوّ، لِم لا؟ لنَرحلْ.

Twitter: @ketab_n

17

من المعلوم فعلاً أنّ الهواء في جبال كولورادو الأكثر جفافاً وصفاءً منه في أماكن أخرى يفرقع بكهرباء ثابتة: فيه سيجد غريغور مناخاً مناسباً لمشاريعه، الأوفر عدداً من أيّ وقت مضى، والتي يروم الاشتغال عليها سريعاً. إضافةً إلى تجاربه في الموجات الكهربائيّة المغناطيسيّة الأرضيّة والجوّيّة، كان يعتزم تصميم منظومة عالميّة للإبراق اللّاسلكيّ، وخصوصاً تطوير فكرته الثّابتة: إيجاد وسيلة لنقل الطّاقة مجّاناً وبلا حدّ إلى أقصى أرجاء الكرة الأرضيّة. ولهذا الغرض، ينبغي أوّلاً بناء مُرسِل.

عند وصوله إلى كولورادو سبرينغس، نزل بفندق ألتا فيستا. حذَرُه من المصاعد جعله يقيم في الطّابق الأوّل حيث اختار الغرفة 108، وهي ليست بأفضل من سواها

Twitter: @ketab_n

ولكنّ رقمها يمتاز بكونه قابلاً للانقسام على الرّقم الذي نعرف. بعد أنْ وضع حقائبه، أمر الخادمة بأنْ تُمدّه يوميّاً بثمانية عشر منديلاً نظيفاً، مشيراً أنّه يفضّل ترتيب الغرفة بنفسه. ولمّا سوّى المسألة، قادته عربة يجرّها ثوران صحبة مساعديه نحو الموقع الذي حُجز له.

كانت الشّمس ترسل أشعّة ساطعة على كولورادو والزّوابع العنيفة تندلع بشكل متواتر، بل إنّها أحدثت ذات مرّة نحو ستّة آلاف برق في السّاعة: مقرّ بحوث مثاليّ، ميدان ممتاز لأشغال غريغور الذي يزعم، بما يدّعيه من حدّةِ سَمعٍ مُفرطة، هذا إنْ لم يكن مهووساً بالمبالغة- وهو نفس المشكل معه دَوماً-، يزعم أنّه يسمع الصّاعقة على بعد ألف كيلومتر، فيما مساعدوه لا يكادون يدركونها إلّا على مسافة مائتين. الموضع الذي أُعطي له في الجبل يستجيب على أيّة حال لميله إلى الغموض والسّرّيّة: لا يحيط به غير مَراعٍ تتنقّل فيها خيول لامبالية، والمبنى الأقرب هو مؤسّسة للصُّمّ البُكم. بعد أن ألقى غريغور نظرة شاملة على المشهد، والحيوانات المختلفة والطّيور المحلّيّة، أخرج من حقيبته حزمة من التّصاميم بسطَها على محامل قبل أنْ

Twitter: @ketab_n

يَستدعي مصانع الجوار.

جهازُ إرسالِه، بعد أن أُنشئ، كان عبارة عن بناية مربّعة من الألواح الخشبيّة، مملوءة بوشائع ومحوّلات، يغطّيها نوع من برج رئيسيّ في حصن، حيث تبرز صارية معدنيّة طويلة تعلوها هي أيضاً كرة من النّحاس. وبعد أنْ وصل غريغور الصّاريةَ بنَوّاسٍ قويّ ذي جهد عالٍ وتردّد مرتفع، بدأ يختلق الزّوابع، محتشمة في البداية ثُمّ أكثر فأكثر إثارة. وسرعان ما صارت تلك التّجارب شديدة الصّخب ولكنْ بما أنّ المرسِل كان بعيداً عن كلّ شيء، فمن المحتمل ألّا يُزعج أحداً. ثُمّ إنّها كانت تدور دائماً في عزّ اللّيل، حين يكون الجميع نائمين في ظلام كولورادو سبرينغس، ما يجعل استهلاك التّيّار عندئذ ضعيفاً ويسمح لغريغور بأنْ ينهل بلا نهاية من تيّار الشّركة المحلّيّة.

خلال تلك اللّيالي، كان إذا تهيّأ لتشغيل آلاته، احتاط الجميع لوقاية أنفسهم. كان هو ومساعدوه يحتذون نعالاً من الفِلّين، ويغطّون أيديهم بقفّازات من اللِّبْد أو الأمْيانْت[1] العازل ويُصمّون آذانهم بالقطن حتّى طَبْلاتِها.

(1) Amiante: حرير صخريّ ناعم.

Twitter: @ketab_n

وبعد تشغيل المُسَيِّب، تبدأ بروق تَخطف البصر بالتّعاقب، أكثر كثافةً وامتداداً من بروق زوبعة طبيعيّة، تتخلّلها شُجون لامعة، شائكة، مختلجة، قبل أنْ تتّصل دون انقطاع بواقيات الضّواعق في الجهة على بعد ثلاثين كيلومتراً من كلّ ناحية، تحت صخب الأقواس الكهربائيّة.

كلّ ذلك، وإن كان بالغ الطّنين، لم يكن يُزعج الجوار كثيراً ولكنْ صادف ذات ليلة أنّ غريغور، في أوج حماسه، جاوز الحدّ وخلق جعجعةً مُفرطة. وإذا بالجميع، في كولورادو سبرينغس، فجأةً، ما عادوا ينامون: أيقظ الحجم الجبّار الأهالي فزعين، فكانوا يُهرولون مروَّعين في قمصان النّوم، بعضهم على حصان وبعضهم على عربة ثيران، وحتّى على قدميه رغم طول المسافة كي يرى ما يحدث. كانوا منذهلين وإن بقوا على مسافة معيّنة، ليقينِهم بأنّ هذه الصّاعقة المصطنَعة يمكن أن تَمحوَهم من الوجود بضربة واحدة، ظلّوا في البداية مأخوذين قبل أنْ يَدبّ النّشاط في صفوفهم بفعل شبكات قطع صغيرة متأجّجة تتسرّب بحيويّة بين حبّات الرّمل قبل أن تنفجر تحت أقدامهم. جعلوا يتراقصون دون إيقاع مثلما شاهدنا

Twitter: @ketab_n

جميعاً، في أفلام الويسترن، ما يفعله رعاة البقر حين تُطلَق النّار على أرجلهم، فيما كانت شرارات طويلة حول المختبر تنبثق بصوت ثاقب من كلّ شيء معدنيّ متّصل بالأرض، ففي المراعي المجاورة، جعلت خيولُ جَرّ هادئة، وقد التقَطت حدواتها شحنات كهربائيّة، تتمرّد وتهتاج مستشيطة، وتصهل بأكثر وحشيّة ممّا لو فكّرت في المجزرة، وتصوّرت ذهنيّاً عمليّة السّلخ.

تلك المغامرة التي حظيت بتعاليق واسعة كانت موضوع مقالة مُسهَبة في جريدة البلديّة، عند قراءتها استنكر الأهالي في البداية، ثُمّ عبّروا فقط عن استيائهم، وختموا بشعور مِلْؤه تسامح لا يخلو من اعتزاز بأنّ عالِماً جليلاً ذا نفوذ اختار الإقامة في بلدتهم. عاد الهدوء إلى كولورادو سبرينغس إلى أنْ أمعن غريغور في الغُلُوّ، أثناء ليلة أخرى، حينما حاول إرسال موجة كهربائيّة ما فتئت تزداد قوّةً هذه المرّة ولِمَ الحرَج؟، سوف تَدفع كوكبَ الأرض نفسَه إلى ترجيع الرّنين.

ستكون التّيّارات الضّروريّة هذه المرّة أرفع، كما لم تكن من قبل، وسوف تبلغ الجهود ملايين الفولتات.

Twitter: @ketab_n

لهذه المناسبة، ارتدى غريغور لباساً احتفاليّاً: طربوش مُلمَّع، قفّازان من جلد البيكاري[1] فاتحا اللّون جديدان وردنغوت موديل الأمير ألبير[2]. تَلا عَدّاً عكسيّاً وكتَم نفَسَه، ولمّا شغّل مساعدُه القاطعة، انفجرت صاعقة جبّارة فوق المحطّة واستشرى فيها ضياء أزرق صقيعيّ مع رائحة أوزون قويّة فيما كانت بروق عملاقة، بحجم ناطحة سحاب، تنبجس من الصّارية في هزيم رعد لم يُشهَد له مثيل. استمرّت الظاهرة بضع دقائق كانت خلالها تتّسع وتتضخّم إلى أن انتهى كلّ شيء فجأةً: لم يعد ثَمّة ضجيج، ولا ضوء ولا تيّار خاصّة، ولم تعد ثَمّة وسيلة لإيقاد أدنى قنديل سهَر.

ثارت ثائرة غريغور فأرسل أحدَ مساعديه إلى شركة الكهرباء بكولورادو سبرينغس، وكانت المدينة هذه المرّة غارقة في الظّلام. سمع المبعوث من الحارس اللّيليّ المذعور، ثُمّ أكّد كلامَه ضابطُ الإطفاء، أنّ المولّد الأساسيّ للشّركة، وقد أثقلته تلك التّجربة، انفجر قبل أن يشتعل.

---

(1) Pécari: خنزير برّيّ صغير الحجم.

(2) Prince Albert (1819–1861): زوج الملكة فكتوريا، وأبو إدوارد السابع.

Twitter: @ketab_n

عندما دُعي غريغور من الغد، أعلمه المدير بجفاء أنّ الشّركة تُعلّق توزيعها، ولن تقبل بمدّه بالتّيّار من جديد إلّا إذا أصلح المولّد على نفَقته، إصلاح سرعان ما أمّنه رجال غريغور خلال أسبوع.

عادت كولورادو سبرينغس تبدي عدم رضاها عن المخترع، فالصّحافة المحلّيّة استاءت للانقطاع، والنّاس في الشّارع صاروا يحيّونه بأقلّ من ذي قبل، وعدد المناديل اليوميّة ونظافتها، في غرفته بالفندق، باتت أقلّ مطابَقةً لشروطه. لم يُبالِ، إذ واصل بحوثه بالنّوم غالباً في موقعه، ليس أكثر من بضع ساعات لأنّه كان يعمل بلا توقّف إلى أنْ وضع تصميم منظومة الإبراق اللّاسلكيّ التي سجّل على عجَل براءة اختراعها- ولكنْ بسرعة مفرطة، هذه المرّة، وبشيء من الرّعونة على الأرجح.

في ليلة أخرى، وفيما كان غريغور منكبّاً على جهازه القويّ لالتقاط الرّاديو، خُيِّل إليه أنّه سمع أصواتاً غريبة بدت له قادمة من الأقاصي، مُنَغَّمة بوضوح، ومُوَقَّعة بانتظام. بعد ذلك بثلاثين عاماً سوف يُتَبيَّن أنّها موجات ميكانيكيّة متأتّية فعلاً من النّجوم غير أنّ غريغور، الذي

Twitter: @ketab_n

يستعجل دائماً تمجيد نفسه، عزاها بصوت رزين ودون تردّد إلى كائنات عاقلة بعيدة جدّاً، تسكن كواكب أخرى- الزُّهْرة أو المرّيخ على أقلّ تقدير- تمتاز بالذّكاء لا بل هي متفوّقة علينا علميّاً وتحاول الاتّصال به هو. هذا أمرٌ آخر.

وبما أنّ غريغور يحبّ لفت الانتباه بقَدر حبّه للغموض، لم يلزمه المزيد كي يعلن بعد وقت قصير أنّه يتواصل مع سكّان المرّيخ. هذا الإعلان انتشر في سائر أرجاء البلاد عبر الصّحف التي كانت تهوى ذلك، والتي تفطّنت لوجود غريغور منذ زمن طويل كموضوعٍ من ذهب، والتي لا تتورّع عن السّخرية منه ولو مقابلَ إمبراطوريّة- بينما كان المجتمع العلميّ، الجهم وغير الودّي، ينظر إلى مثل تلك التّرّهات بتقدير أقلّ. ارتاح غريغور لهذه العمليّة الإشهاريّة، خصوصاً أنّه ما عاد يُطيق العيش في الرّيف حيث باتت شهرته فيه تتناقص كلّ يوم، فقرّر العودة إلى نيويورك. حزّم على عَجل حقائبه وهو يفكّر، فقد هزّه آنئذٍ سؤال محيّر: بِم نُجيب سكّان المرّيخ، وكيف؟

Twitter: @ketab_n

18

ثمّ كفانا من الكولورادو. الهواء الجيّد يَصلح مدّةً، ولكن لنَعُدْ إلى الوقت الحاضر. لنعد بسرعة لا سيّما أنّنا بدّدنا كلّ شيء، وأنّه بات ينبغي أن نجد نقوداً طريّة للسّير ببعض المشاريع الجديدة قُدماً.

ليس ثقل العزلة هو ما حمل غريغور على العودة إلى المدينة الكبيرة. صحبة البشر لا تُعْوزه مُطلقاً إذ يمكن أن يبقى وحيداً مع ماكناته، وصحبة النّساء كذلك إذ يمكن أن يظلّ وحيداً أيضاً في سريره- ولو لبضع ساعات كلّ ليلة. والحقّ أنّ صحبة الأثرياء هي التي يحتاج إليها. مآدب العشاء في بلايرز كلوب، وديلمونيكوس ومحلّات أخرى يرتادها أصحابُ رؤوس الأموال المفيدون. مع أولئك، وبفضل كلام خلّاب لامع وخفيّ القصد، كان غريغور

Twitter: @ketab_n

يحاول دائماً، وبنجاح في الغالب، أنْ يَسلب الأموال الضّروريّة لمواصلة أشغاله. إذا كانت عودته لأجل هذه الغاية، فإنّه من الحقّ أيضاً، على مستوى الرفاه، أنّ العودة إلى والْدورف أستوريا- حيث خطّ اقتراض مفتوح له على الدّوام- ستعوّضه لحسن الحظّ عن الأشهر الثّمانية التي أمضاها في فندق ألتا فيستا.

خلال ما يقارب السّنة التي قضّاها غريغور في الجبل- وهي علاوة على ذلك آخر سنة في القرن التّاسع عشر-، استطاع أن يلعب كما يشاء مع الزّوابع، وأن يكتشف الموجات الثّابتة، ويستعمل الكرة الأرضيّة كأداة مختبر ويستطلع أخبار سكّان الكواكب الأخرى. وهذه ليست حصيلة رديئة، ولكنْ حسناً، لننتقلْ إلى شيء آخر. هذا الشّيء الآخر هو بناء برج عملاق سوف يقوم مقام محطّة أخبار كونيّة: هذا ما قد ينال الاستحسان، قال غريغور في نفسه. وخاصّةً جلْب رؤوس الأموال.

إلّا أنّهم كانوا ينتظرونه في نيويورك بقدم ثابتة. ولمّا كانت المجتمعات العالِمة لم تَستسغ حكايته عن سكّان المرّيخ تلك، فإنّ غريغور فقَد اعتباره في عيون أعضاء

Twitter: @ketab_n

المجمع العلميّ، التي كانوا يرفعونها إلى السّماء، بامتعاض، لمجرّد ذكر اسمه. أما الصّحف، التي تبتهج لاستغلالها من جديدٍ هذا الكاريكاتير المثاليّ للهوس والشطط، فلم تتوقّف عن الاستهزاء به، وعن نحت شُهرة مثيرة للسّخرية بحيث كان المترجّلون يبتسمون عند مروره، وصبْية المصعد بوالْدورف يشيحون بأوجههم عنه وهم يضحكون عندما يركب المصعد، وحتّى أطفال أولئك الصّحافيّين، وأولئك العلماء، وأولئك المترجّلين، وصبْية المصعد كلّهم يتبعونه في الشّارع وهم يقذفونه بالكلام. ولكنّ غريغور لا يبالي إطلاقاً، وبما أنّ بناء هذا البرج الجديد هو فكرته الأولى، فإن الثّانية هي إيجاد المال لذلك. هو يعلم أنّ المموّلين الذين سيتوجّه إليهم لا يزالون، هم، رغم كلّ شيء ينظرون إليه نظرة ملؤها الجِدّ.

ذلك أنّ هؤلاء لا يستطيعون أنْ يَنسوا، رغم سُمعته التي صارت مثيرة للسّخرية وسعي زملائه كي يُفقدوه اعتباره، أنّ غريغور، بفضل ابتكاره التّيّار المتناوب، هو الذي ضَمِن لوستنغهاوس احتكار الكهرباء أمريكيّاً، عمليّة كهذه ليست سوى منجم ذهب بلا قاع. يمكن

Twitter: @ketab_n

إذنْ أنْ نتخيّل أنّ فكرة بهذا الحجم، صادرة عن نفس الشّخص، قادرة بلطف أنْ تضمن لهم ثروة بمثل تلك الوفرة. هم يَعرفون أنّه غريب الأطوار سريع الاندفاع ولكنّ الرّهان يستحقّ المجازفة، يجدر فقط أنْ يبقى المرء حذراً، أنْ يُراقبه ويؤطّره بكيفيّة سليمة ويتركه يفكّر. ولمّا كانوا لا يبالون بسُمعته السيّئة، لأنّهم يضعون عيونهم دوماً على الأرباح الممكنة، فإنّهم كانوا يُبدون اهتمامهم الواحد تلو الآخر بغريغور حين يقدّم مشروعه الجديد، في اتّجاه لا يمكن إلّا أنْ يهمّهم.

بات الأمر إذن يخصّ منظومة عالميّة للأخبار، صارت ممكنة بفضل عدّة قنوات لموجة البثّ الإذاعيّ بكلّ أطوالها: برامج إذاعيّة، شبكات اتّصالات خاصّة، بثّ مضاربات البورصة وروابط هاتفيّة متبادلة من جملة أشياء أخرى. وفكرة احتكار الاتّصالات اللّاسلكيّة هذه ذات المردود الكبير فيما يبدو للوهلة الأولى، بشرط أن تتجسّد، بدت تُغري أصحاب البنوك الأساسيّة. هم يريدون أن يعرفوا منه المزيد، يدعونه إلى العشاء، يقدّمونه إلى الوكلاء المفوّضين. وإذ عاين غريغور ذلك، وأدرك الأهميّة التي

Twitter: @ketab_n

يثيرها لدى رجال المال، قرّر ألّا يقف عند هذا الحدّ وأن يطرق بابَ مَن هو أعلى، ويسعى إلى الاتّصال بأكثرهم جاهاً، المدعوّ جون بيربونت مورغان.

ليس من السّهل الاقتراب من جون بيربونت مورغان، فأهمّيته تسمح له بالاحتماء من العالَم، بل تَدفعه إلى ذلك. ولكنْ انظروا كيف تجري الأمور، فأحد القلائل الذين يستطيعون مخالطة جون بيربونت مورغان خارج الدّوائر المصرفيّة هو أيضاً أحد المقرَّبين القلائل من غريغور: نورمان أكسيلرود. كان غريغور قد استعاد صلته بنورمان منذ عودته إلى نيويورك، ولكنّه كان يفضِّل أنْ يلتقي به وحده وفي أماكن عامّة بدل بيته، لأنّه كان يَخشى أنْ يرى من جديدٍ إيتيل وله نحوها شعور مُرْبِك لا سيّما أنّه متبادَل.

وكان لا بدّ أنْ يذهب ذات يوم لتناول الغداء في بيتهما. لزم الطّرفان نوعاً من التّحفّظ الأمين ولو أنّه كانت تتخلّله من هنا وهناك نظرات خاطفة. دار الحديث بصعوبة حتّى القهوةِ، نهض نورمان بعد احتسائها وذهب، حسب قوله، ليجيء بعلبة السّيجار من الصّالون. طال الصّمت بعد

Twitter: @ketab_n

خروجه وتمطّط. بقيتَ مدّة طويلة في كولورادو، سألت إيتيل أخيراً. سنة، ردّ غريغور. هي سنة صغيرة في النّهاية. ولم تراسلني ولو مرّةً واحدة، قالت مذكِّرة. أرجو المعذرة ولكنّي كنت مشغولاً جدّاً، غمغم غريغور دون أنْ يحاول إخفاء سوء نيّته. ولكنْ، لِعلمك، لم أخبر أحداً. ثُمّ، أردف قائلاً، أنتِ تعرفين أنّي شخص قذر. ولكنْ أنا أيضاً، قالت إيتيل مبتسمة، أنا أيضاً شخص قذر.

ردٌّ كهذا يدفع إلى تصوّر عدّة آفاق، ما جعل غريغور يتطّلع إليها بعينين جاحظتين. لم تكن النّساء يتكلّمن بهذه الطّريقة عام 1990. أمّا إيتيل فبَلى. ران صمت جديد بدا خلاله غريغور، بعد أنْ نظر إليها مليّاً، مهتمّاً بشكل مُدهِش بقاع فنجانه. كانت إيتيل لا تزال تبتسم حينما عاد نورمان إلى قاعة الأكل، يحمل في يد علبة السّيجار، وفي اليد الأخرى رسالة توصية إلى جون بيربونت مورغان.

Twitter: @ketab_n

19

من بين كلّ رجال المال الذين حظي غريغور بفرصة لقائهم، يعتبر جون بيربونت مورغان أثراهم، بل إنّه في الحقيقة أقوى رجل في العالَم، يبسط أنشطته ويقبض ريعها في المجالات الكلاسيكيّة الأكثر ربحاً وتنوّعاً: البترول، والغاز، والفحم، والغابات، وسكك الحديد، والبحريّة والعقارات على سبيل الذّكر لا الحصر. جوبيتر[1] الدّولار، فرنكنشتاين في المعاملات، جون بيربونت مورغان هو عبارة عن رجل فظّ عديم الإحساس سريع الغضب، شعاره الذي يُجسد عليه يتلخّص في ثلاثة أوامر: فكّر كثيراً، تكلّم قليلاً، لا تكتب شيئاً.

متين بشكل غير طبيعيّ، له كتفا فيل ونظرة أفعوان.

(1) Jupiter : ملك الآلهة وإله السّماء والبرق لدى الرّومان.

Twitter: @ketab_n

يفضّل جون بيربونت مورغان أيضاً أن يُرى بأقلّ قَدْر ممكن، وألّا تُتداول صورته خاصّةً. ولكنْ إذا كان يكره أنْ تُلتَقط له صور فليس بدافع التّحفّظ بل بسبب أنفه. لم يوجَدْ ولن يوجَدَ رجل له مثل ذلك الأنف، ولا أحد يتعذّب بهذا القَدر من تلك الزّائدة الضّخمة المائلة إلى اللّون البنفسجيّ، المفلَّقة بحُفَر، المكتظّة بدُرَينات، المهورة بشقوق، الممدودة بسويقات، والمكسوّة بدغل من الشّعيرات. في الكليشيهات النادرة التي نملكها عنه، رغم أنّ ثَمّة دائماً تعليمات بضرورة ترميقها قبل نشرها حذرَ التّعرّض للإعدام، يبدو واضحاً أنّه يستعدّ للقضاء على المصوّر.

سيكون هذا الوحش، المشبَع في الواقع بالنّجاحات الأنثويّة، هو الذي سيَسعى غريغور إلى إغرائه بالتّلويح له بهذا الاحتكار: إمكانيّة التّحكّم في كلّ المحطّات الإذاعيّة المقبلة، في العالَم أجمع. هذا الوتَر الذي يَنقص قوس مورغان، الذي تهمس له غريزته بأنّه يمكن أنْ يَغنم منه غُنماً عظيماً، له كلّ ما يأسر رجل المال، لا سيّما وأنّ غريغور يعرف كيف يكون مُفوَّهاً.

Twitter: @ketab_n

مفوّهٌ ولكنْ كتوم. إذ إنّه يحترز من الإفصاح عن الهدف الحقيقيّ، الأساس بالنّسبة إليه، لمحطّته الإخباريّة. فعلاوة على كونها منذورة للاستعمال لاحقاً في الحديث مع سكّان المرّيخ- وهي نقطة أدرك أخيراً أنّ من الأفضل ألّا يستفيض فيها، لكونها مدعاة للسّخرية- فالمهمّة الأولى لهذه المحطّة تستجيب لنزوته الأولى: إنتاج الطّاقة بلا حدّ وتزويد العالَم أجمع بها، وجعلها في متناوَل الجميع بلا نفقة من أحد. وبفضل إجراءات لا يعرفها سواه وينبغي أن تبقى كذلك، سوف يعمل مولِّد غريغور القادم دون مصدر خارجيّ، فلا حاجة بعدئذ لأن يُجهد المرء نفسه في تقليب باطن الأرض لاستخراج محروقات جوفيّة. ذلك كلّه انتهى: بفضل المنظومة الجديدة، سوف يصبح مستقبل الطّاقة حرّاً.

ولكنّ هذا الملمح الأهمّ لمشروعه، من الأفضل أن يحتفظ به لنفسه. ولا كلمة عنه لا سيّما أنّ فكرة محطّات الأخبار، وحدها، ستكون كافية للحصول على القروض المأمولة: مائة وخمسون ألف دولار حلّقت في ثانيتين من خزائن مورغان إلى حساب غريغور. أسكرته الفرحة

Twitter: @ketab_n

فجعل يغمر رجل المال بمدح زائف، مؤكّداً بتواضع أنّ كريستوف كولومب وليوناردو دا فينتشي ما كانا ليُوفّقا في مسعاهما لولا مموّلون مثله. كان المموّل أكثر هدوءً، لاحظ وهو يمدّ عقداً أنّه يخصّ نفسه بـ 51٪ من حقوق براءات الاختراع كضمان لهذا القرض- مُلحّاً بنبرة ثقيلة على كلمة قرض.

بعد أنْ وُقّع العقد وحُفظ في خزنة، اقترح جون بيربونت مورغان، وهو سعيد بهذا الأفق الجديد من الفوائد، الاحتفال بهذا ودعوة غريغور إلى كأس في حانة فسيحة تُسمّى تاننبومز أويستر، في منعطف الشّارع حيث مكاتبه. يصادف هكذا ألّا ينفر رجل المال، رغم قلّة رغبته في الظّهور، من الاختلاط بعامّة الشّعب.

كانت حانة تاننبومز أويستر في ساعة الذّروة ملآنة بالرّوّاد، والدّخان، والضّجيج، وصيحات التّهليل، والموسيقى الآلية وقرع الكؤوس، ولكنْ تجمّد كلّ شيء عند بروز رجل المال وقد عرفه كلّ واحد في الحال لأنّه كان يَسبقه أنفه الأسطوريّ، اللّامع والكبير الحجم، مثل عربة ذات فانوس دوّار تعلن عن ركب استثنائيّ. وسط

Twitter: @ketab_n

صمت التّبجيل الذي عمّ المكان، دنا جون بيربونت مورغان بتثاقل من البار وطلب قدحين من الجعة بصوت غولٍ، فامتثل السّاقي على عجل وهو يرتعد قليلاً. ثُمّ نظر إلى الزّبائن الجامدين، المتحلّقين حوله وكلّ واحد منهم يصرّ قبّعته إلى صدره بكلتا يديه إجلالاً، وقرّر أن يُدخل على الجوّ بعض انتعاش. عندما يشرب مورغان، صرخَ، الجميع يشربون.

هتافات: أسعدت دعوته الرّوّاد فطلبوا أقداحَ جعةٍ في أبسط الأحوال وعادت الأحاديث مع قرع الكؤوس، والموسيقى وما إلى ذلك في تناسق إلى أنْ صفَق جون بيربونت مورغان، بعد أنْ أفرغ كأسه بسرعة، على البار قطعة عشرة سنتات، كان لوَقْعِها، فجأةً، إلغاءُ الضّجيج. التفت الجميع في صمت نحوه وهو يلقي على الجميع نظرة دائريّة قبل أن يَزعق مجدَّداً. عندما يُسدّد مورغان، صرخَ، الجميع يسدّدون. واتّجه نحو الباب بخطى سريعة يتبعه غريغور، فيما كان الزبائن يفتّشون في جيوبهم مصدومين؛ بناء البرج يمكن أن يبدأ.

Twitter: @ketab_n

20

هذا ما يمكن أن يكون عليه ذلك البرج حسب مخطّطات غريغور.

سوف يُبنى من الخشب، مسنَداً إلى مبنى مكعّب يعلوه قطب كهربائيّ ضخم، ويبلغ ارتفاعه ستّين متراً، وسيكون مثمّن الأضلاع مخروطيّ الشّكل، ويحتوي على قضيب من الفولاذ يغوص عميقاً في الأرض، وحوله سلّم لولبيّ. المبنى، الذي سيقام بالآجرّ، سوف يحتوي على غرفة ماكنات وكذلك مختبر يفضي إلى قاعة استقبال مجهَّزة بالرّفاه العصريّ. أمّا القطب الكهربائيّ، فهو قبّة مصنوعة من النّحاس المحبَّب، تصوّرها غريغور في البداية في شكل فطيرة قبل أن يفضّل عليها قلنسوة فُطر. أي أنّ المظهر العامّ سيكون فطريّ الشّكل،

Twitter: @ketab_n

بوليطس[1] عملاق تقريباً.

ذلك هو مخطّط البرج، بقي إيجاد المكان الذي سيقام فيه. اتّفق أخيراً على قطعة أرض واقعة في لونغ آيلند، على حافة البحر، ثمن شرائها غير مرتفع والوصول إليها سهل، مائة كيلومتر على بروكلين، ساعة ونصف في القطار. بعد أن تَمّ الاختيار، بقي الإقبال على العمل، فكان ذلك.

وبينما انطلقت الأشغال، وهبّ العمّال بالعشرات، كان غريغور لا يضيّع دقيقة. كلّي الحضور، يُرى في كلّ مكان في الوقت نفسه، وكأنّه ضوعف أربع مرّات: في الورشة، والمكاتب، وفي المختبر، والصالونات. إذا كان لا يكفّ عن تفقّد تقدّم المبنى، ساعة بساعة وفي أدقّ جزئيّة من تصميمه، فإنّه يقضّي أيضاً أيّامه في تجهيزاته النّيويوركيّة الجديدة في الشّارع الثّالث، يتشاور مع علماء آخرين قدموا من شتّى أنحاء العالَم، دون أن ينسى تجسيد مشاريع بحث جديدة ومتعدّدة، كامل الوقت كذلك. من ذلك أنّه بعد أن تصوّر موديلاً غير مسبوق لطوربيد موجّه بالأشعة- مفيد دوماً في حالة نزاع كما شاهدنا مع إسبانيا-، كان يخصّص

(1) Bolet: فُطر من الفُطور الغشائيّة بعضه سامّ وبعضه الآخر صالح للأكل.

Twitter: @ketab_n

أوقاته الباقية في اكتشاف أشياء متنوّعة وتصميمها، ويحرّر في آنٍ واحدٍ عشرات المقالات ويضرب بنفسه على الآلة الطابعة، بيَدَيْ غِيارٍ ربّما، مطالبَ براءاتِ اختراع تتعلّق بتلك الاكتشافات الجديدة وبتطبيقاتها العمليّة. أمّا ما تبقّى من نهاراته ولياليه، فكان يُقضّيها وسط المجتمع الرّاقي في قاعات استقبال والْدورف أو دلمونيكوس، حيث ما زال لا يُرى أحدٌ غيرُه.

ومتى ينام إذن، لا ندري، لعلّه لا ينام. ومتى يُضاجع، لا شيء يَدلّ على أنّه يمارس ذلك، وليس مستبعَداً أنّ قليلاً من الوقت ينقصه كي يكون أكثر من أربعة أشخاص في الآن نفسه. حاضر دوماً، فعّال دوماً ونشيط، ولا يمكن أنْ يُلام، ربّما، إلّا في مسألة تسجيل البراءات التي يتعجّل فيها بشكل يبدو معه مهمِلاً.

ثُمّ إنّه ما من أحد يمكن أن يلومه على أيّ شيء، حتّى إيتيل بصفة أخصّ، رغم التّواطؤ الحميم الذي يربطها بغريغور، وإن كان مضمَراً وضمنيّاً، غريغور الذي يعود دائماً أيام الثّلاثاء والجمعة لتناول العشاء في بيت أكسيلرود. دون أن تقرّ إيتيل بذلك أو تعيه، كانت أكثر

Twitter: @ketab_n

انشغالاً بمشاعر غريغور، بامتلاكه حياةً جنسيّةً أو لا، وأكثر افتتاناً بشخصه من أن تسمح لنفسها بالتّدخّل في أيّ نقطة من حياته المهنيّة. كانت تنشغل كثيراً بتسريحة شعرها، واختيار فستان والتعطّر لمناسبة تلك السّهرات، وعندما يأتي، تكون حريصة على ألّا تُديم النّظر إليه وهو يَفيض بالحديث عن تقدّم الأشغال في لونغ آيلند- فيما كان نورمان يُعدّ الكوكتيل بطيب خاطر والشّابّ أنغوس نيبر، الذي يحضر أحياناً تلك المآدب، يؤثّث وجهه المذعور ببسمة متقبّضة مقيّداً عواطفه بعناية.

وبينما كان البرج الذي ستنطلق منه التّجارب الأولى للبثّ الإذاعيّ يرتفع، عَلِم النّاس من الصّحافة، في الصّفحة الأولى من جريدة «فيلادلفيا أنكيرر» بحدث مذهِل ولكنّه مؤسف. شخص يُلقّب بماركوني، اسمه غوليلمو، مولود بمدينة بولونيا، أسقط كلّ مشروع غريغور. فتى ذو أنف رفيع وبسمة حزينة، بعيداً عن نيويورك ومستقوياً ببراءة اختراعه رقم 7777، ماركوني هذا يعلن دون حياء عن اختراعه الرّاديو.

دون أسلاك فعلاً استطاع أنْ ينقل تلغرافيّاً رسالة

Twitter: @ketab_n

أولى عبر الأطلسيّ، من كونْتيّة كورنوايْ[1] إلى جزيرة تير نوف[2]، مُثْبِتاً أنّ الموجات اللّاسلكيّة الكهربائيّة يمكن أن تعبر مسافات طويلة باتّباع تقوّس الأرض. كانت تلك الرّسالة في غاية البساطة، فهي لا تتكوّن إلّا من النّقاط الثّلاث لحرف «أس» برموز مورس، ولكنّ الأذى حصل. ماركوني هو الأوّل، وسيكون هو الذي يعود إليه استحقاق هذا التّصميم. اندهاش الملأ أجمعين، وذهول غريغور بخاصّة.

ما لبث النّاس أن تعجّبوا كيف توصّل ماركوني إلى مبتغاه بوسائل في غاية البساطة. يتساءلون عنه. وهم يجهلون أنّه لم يقم سوى باستغلال إحدى البراءات، براءة الاختراع رقم 645.576، التي أودعها غريغور قبل بضع سنوات ولكنْ بحماية غير كافية. لا مجال لمعرفة أنّ تلك البراءة أُرسلت في الخفاء إلى ماركوني. ولو عرفنا لتساءلنا، بدراسة العنوان المكتوب بخطّ اليد على الظرف الذي

(1) Cornouailles: كونتيّة (أي أراضٍ عائدة إلى كونت) تقع في جنوب غرب إنكلترا.

(2) Terre–Neuve: الاسم الفرنسي لجزيرة نيو فاوندلاند الواقعة في عرض الأطلسي بأمريكا الشّماليّة، وصارت منذ عام 1949 تابعة لكندا.

Twitter: @ketab_n

يحويها، إن لم تكن تتميّز بنقاط مشتركة مع خطّ أنغوس نيبر. حتّى وإن اعترفت المحكمة العليا، بعد اثنتين وأربعين سنة، بأسبقيّة أشغال غريغور في مجال النّقل الإذاعيّ، ففي انتظار ذلك، أي قبل اثنتين وأربعين سنة، ها هي ضربة لئيمة أخرى بالنّسبة إليه.

كان الحِبر لا يزال نديّاً على مقال فيلادلفيا أنكيرر حين دُعي على عجل إلى مكتب جون بيربونت مورغان. حسناً، قال له رجل المال، إذن لم يعد يُجدي، شَيْؤُكَ هذا، أليس كذلك؟ أرأيت ذلك الإيطاليّ، هو لم يحتج مثلك إلى هذا الشيء الضّخم لكي يبثّ. لحظة، أجاب غريغور، دعني أشرح لك.

كان لا بدّ له أنْ ينطلق، أن يلعب ورقته الأخيرة، أنْ يفسّر ويُفرغ ما في جعبته. شرح أنّ الرّاديو لم يكن سوى واحد من الاهتمامات الصّغرى لبرجه العظيم، وكشف أخيراً عن رهانه الأكبر: مشروعه عن الطّاقة الحرّة. حتّى تلك اللّحظة كان يقدّر أنّ من الأجدر السّكوت عن تلك النّقطة، علماً منه أنّها تفترض مفهوماً للمال لا يتلاءم مع مفهوم السّوق، وأنّه من حيث المبدأ لا يمكن تمويل

Twitter: @ketab_n

إلّا ما يجلب المكسب: خارج ذلك التّصوّر يستنكف المستثمرون. ولكنْ حسناً، يمكن للضّخم جون بيربونت مورغان أنْ يتعاطف مع عظمة المشروع، من يدري.

بلى، نحن ندري: مورغان لن يكون حسّاساً أبداً. بما أنّه لم يمارس قَطّ مهامّ مُحسنٍ إلى الإنسانيّة، لم يُبدِ رجل المال أيّ حماس لفكرة نقل التّيّار مجّاناً إلى مناطق يسكنها أيْنوس[1] ومولداف أو سينغاليّون معدِمون. وهو وإن أكّد لغريغور أنّه يحفظ له كلّ ودّه وسنده المعنويّ، ألغى القرض بجرّة قلم. وتوقّفت أعمال تشييد البرج في فرقعة إصبعين. إخفاق مرّة أخرى.

لتفهمني جيّداً، شرح مورغان، منظومتك لا تستقيم أبداً. فإذا أمكن للعالم كلّه أنْ ينهل من الطّاقة كما يشاء، فما يكون مصيري أنا؟ وأين سأضع العدّاد؟

(1) Aïnous: الأينو أو الأوتاري أقلّيات تعيش في شمال اليابان وأقصى شرق روسيا.

Twitter: @ketab_n

21

مع هذه الأشياء كلّها، التي مضت سريعاً مثل حياته بأسْرها، كان غريغور يعيش عامه الخامس والخمسين. لا ندرك أبداً إلى أيّ درجة كانت تلك الأعوام سريعة، والحال أنّ الأيّام تمضي ثقيلة والأصائل لا تنتهي. يُلفي المرء نفسه في سنّ معيّنة دون أن يفهم كيف حصل ذلك، حتّى وإنْ كان مثلَ غريغور يتفقّد ساعته طول الوقت، وحتّى وإنْ كانت السّاعة لا تعطي غير فكرة ناقصة، مُغرِضة وفي كلّ الأحوال خاطئة عن ذلك العمر.

من كثرة تحرّكه بلا انقطاع، خصوصاً بعد هزائمه وإخفاقاته- الضّربات التي يَظنّ، والتي يعلم أو يجهل أنّهم أصابوه بها-، قد ينشغل ربّما بنفسه، ويعيد النّظر في أساليبه ويصحّح علاقته بالعالَم. سوف يجد مبرّراً

Twitter: @ketab_n

لذلك، ولكنّه يبدو أنّه لا يقيم له وزناً. فغريغور، بما هو عليه من تكبّر ووثوق بالنّفس، لم يغيّر شيئاً من عاداته، إذْ كان يواصل الخروج كلّ ليلة، ويتزيّى متّبعاً بمنتهى الدقّة تعاليم مجلّات الموضة، ويحافظ على جناحه بفندق والْدورف. من مدير النُّدُل إلى صبْية المصعد، كان يوزّع على الجميع بخشيشاً باذخاً على قدر إجلاله لنفسه، ويشتري في الصّحف مساحات عريضة يبرّر فيها مسلكه نقطة نقطة، ناسباً إلى نفسه كلّ اختراع جديد، طارحاً أفكاراً تخيّلها على عجل دون أنْ يُخضعها لأدنى فحص تجريبيّ، مسلّطاً احتقاره على منافسيه ومعاصريه عامّة، باختصار صار منفِّراً يوماً بعد يوم.

غير أنّ كلّ ذلك له ثمنه. والحال أنّه بات مُعدِماً، مَديناً، يعيش فوق إمكاناته بكثير ولا يواصل نمط عيشه إلّا بقروض. كان مورغان حريصاً على عدم الإفراط في التخلّي عنه، فينقده أحياناً على سبيل الإحسان أموالاً ما عادت تكفي لتغطية كلّ نفقاته، ثمّ إنّ المرء لا يمكنه أن يستعيد شأنه بفضل القروض حصريّاً. ولكي يحاول إيجاد المزيد من المال، عاد غريغور إلى تنظيم بعض العروض

Twitter: @ketab_n

المشهديّة التي يملك أسرارها داخل المختبر، يقدّمها لمن لا يزال يستطيع أنْ يَعثر عليهم في سوق الأثرياء، محاولاً إغراءهم لجمع الأموال. إنّما كان يفعل ذلك بحذرٍ: مجازفة محدودة لأنّ المعنّي حصريّاً جمهور واسع الثّراء، أجهل من أن يستطيع سرقة أفكاره: من باب الاحتياط، صار لا يدعو إلى العروض أيَّ عالمٍ.

عدا ذلك، كان يصل إلى مقرّ شركته كلّ يو م عند منتصف النّهار تحديداً. تستقبله مساعدتاه عند المدخل لتأخذا منه قبّعته، وقفّازيه، وعكّازه قبل أنْ يتّجه إلى مكتبه حيث تكون النوافذ قد أُغلقت والسّتائر قد أُسدلت بعناية، لأنّ غريغور لا يستطيع أنْ يُركّز إلّا في العتمة التّامّة. لا يُسمح بمرور ضوء النّهار إلّا عند اندلاع زوبعة، يكون خلالها مستغرقاً في كَنبته المغلّفة بالموهير[1] الأسود، يتأمّل السّماء والبروق المنهالة على نيويورك. وعلاوة على تناقص حبّ النّاس له، ونزوع طبعه إلى التعكّر، يبدو أنّه بدأ أيضاً يفقد شيئاً من توازنه بظهور بعض العلامات المريبة. حتّى وإنْ كان دائم الكلام وحده، يحاور نفسه باستمرار خلال

(1) Mohair: قماش مصنوع من وبر معزاة أنقرة الحريريّ الطّويل.

Twitter: @ketab_n

أعماله، فإنّ المساعدتين القلقتين يمكن أن تَسمعاه عبر الباب، رغم أنّه منجَّد، يثرثر وحده كأكثر ما يكون خلال أوقات الزّوابع تلك. يبدو عندئذ أنّه يتوجّه إلى البروق كما يتوجّه إلى مستخدَمين، وأطفال، وتلاميذ أو زملاء، في تنوّع عجيب من النّبرات الصّوتيّة: مواسياً، قاسياً، متذمّراً، رفيقاً أو مهدِّداً، ساخراً أو منمَّق الأسلوب، متواضعاً أو متعاظِماً.

والأدهى من ذلك أنّ غريغور، حتّى بعد الزّوبعة وأيّاً كان مزاج السّماء، لا يلبث أنْ ينطق في كلّ ظرف بكلام لا يفتأ يخلو من الاعتدال، معبّراً عن أفكار عظمةٍ مغالية ومتكرّرة بشكل جعل أصحابه، أو القلّة التي تبقّت له، يحاولون حمايته من تصريحاته.

وسواء كان مجنون عظمة أم لا، فها هو يبتكر تُربينة جديدة. قد تقولون إنّ تربينته ليست سوى تربينة، ولكن ينبغي الإقرار أنّنا هذه المرّة أمام تربينة استثنائيّة. لا جدال أنّها أخفّ وأقوى من التّربينات الأخرى، لها كلّ ما يعيد مخترِعَها إلى الصّفّ الأوّل، ويُكْسبه أُبّهة جديدة. صرّح بتواضع، كعهده في العناية بفروق اللّغة، أنّه لا يرى أيّ

Twitter: @ketab_n

حدّ لتطبيقات تربينته التي يمكن أن تشغّل كلّ السّيّارات، وكلّ الشّاحنات، كلّ الطّائرات وكلّ القطارات، وحتّى البواخر التي سوف تجتاز، بفضلها، المحيط الأطلسيّ في ثلاثة أيّام دون أدنى مشكلة. تعمل بالبخار أو البنزين على حدّ سواء، وهي أقلّ كلفة عند الصّنع من المحرّكات العَنَفيّة[1]، وسوف تكون أساسيّة لا تُعَوّض في مجالات متنوّعة كالزّراعة، والرّيّ، والمناجم، والنّقل المحرّك بالماء والتّثليج. صيحات إعجاب، هتافات، مجد وآمال جديدة، شوهد غريغور متنفّجاً كما لم يكن قَطّ عند التّطبيقات الأولى لتربينته التي أعطت في البداية نتائج ممتازة- قبل أنْ تُقيم الدّليل على حدودها.

لعلّها نهاية عبقريّة غريغور العلمّية: بما أنّه أخطأ في حساباته التقديريّة، فلا بدّ من الإقرار بأنّ صنع التّربينة أكثر تكلفة ممّا كان متوقّعاً. ما لم يفكّر فيه أيضاً، سرعة دورانها المرتفعة تمثّل خصوصاً عيبَ ميزتِها: فهي وإنّ كانت فعلاً لا تضاهيها الماكنات السّابقة، عالية إلى حدّ لا يستطيع أيّ معدن أنْ يصمد فيها طويلاً. والنتيجة، نهاية التّربينة.

(1) Turbomoteur: عنَفة أو تربينة يديرها الهواء المضغوط وتعمل كمحرّك.

Twitter: @ketab_n

نهاية جون بيربونت مورغان أيضاً، فقد تُوفّيَ في أثناء ذلك. حتّى وهو يتلكّأ، ظلّ حتّى تلك اللّحظة ممّول غريغور الرّئيس، وأوصى بتركة شؤونه الماليّة لابنه الذي ما برح أنْ تلقّى التماساً.

نهاية السّنة على أيّة حال. في سياق الاحتفالات، ولكي يتمنّاها له سعيدة، أرسل غريغور بريداً بالمناسبة إلى ابن مورغان. الأوقات عسيرة، أوضح له مع ذلك في نهاية رسالته، ولا أخفي عنك أنّي يائس. أنا بحاجّة ماسّة إلى بعض المال، ولا أستطيع أنْ أحصل عليه في أيّ مكان. أنت الوحيد الذي يمكن أنْ يُنجدني، وإذ أتوسّل عَونَك، أتمنّى لك ميلاداً مَجيداً.

ثُمّ سلّى نفسه بالذّهاب لإطعام حمام ريزرفوار بارك التي لم تَعد تُسمّى كذلك، إذ أُطلِق عليها اسم برايانت بارك قبل أنْ تُبنى قُربَها المكتبة العامّة الكبرى، وصار يتردّد عليها كلّ يوم. بعد أنْ خفّض حياته الاجتماعيّة يوماً بعد يوم، بدا أنّه يحوّلها إلى تلك الطّيور الدّنيئة، إذ لم يفقد شيئاً من عطفه عليها.

دخل الحديقة، وقبل أنْ يُخرج من جيبه أكياس الحبوب

Twitter: @ketab_n

التي ستكون هداياها لآخر السّنة، هجمت عليه تلك الطّيور الوضيعة إذْ عرفتْه، وهي تَهدل بفظاعة بالعشرات، خاطفة كالكواسر، فغطّت كامل جسده بلونها الرّماديّ القذر، وراحت تَنكش بحميّةٍ وبضرباتِ مناقيرَ متشنّجةٍ جيوبَه المفتّقة. وهو مغطّى من رأسه إلى قدميه بمعطف الحيوانات ذاك، لا يتنفّس إلّا لماماً لكي لا يُربكها، ظلّ واقفاً لا يتحرّك قرب سياج الحديقة، فيما كان بعض المارّة الذين وقفوا في الظّلّ، وبأيديهم هدايا مغلّفة، ينظرون إليه عبر السّياج وهم يهزّون رؤوسهم.

Twitter: @ketab_n

22

أوقات الأفراح تلك، غريغور يعرف جيّداً ما هي. رغم الوقاية التي حرص أنْ يكون عليها، وهو مُدرَّع بالأنسجة والعزيمة، فإنّ البرد كان يتسرّب إليه عبر فجواتها مع الضّنى عبر خلاياه العصبيّة. حتّى وإنْ حسب حسابَ كلّ شيء هذه المرّة، وقد اعتاد تلك الظّاهرة واعتزم الصّمود وتقبّل الأمور كما ينبغي، فالنّتيجة هي نفسها كلّ مرّة ولا سلطان له عليها، ذلك أقوى منه: لم يكن على ما يرام.

لم يَعد يستطعم أيّ شيء خلال تلك الفترة، لم يَعد له حتّى أبسط رأي ثابت. إذا لم ينزل الثّلج، تأسّف لذلك وتحسّر: كان يمكن على الأقلّ، ما دام الوضع على ما هو عليه، أنْ يَظهر جميلاً في اللّوحة. ولكنْ إذا استجاب الثّلج لتأسُّفه وجعل ينزل، فإنّه يغدو أكثر تَحسّراً، لأنّ الثّلج سرعان ما

Twitter: @ketab_n

يتحوّل إلى وحل. الشّيء نفسه بالنّسبة إلى الهدايا. إنْ أُهدِي هديّة بدت له تافهة. وإنْ لم يُهْدَ، فحدّث ولا حرج. قلِ الشيء ذاته عن المآدب التي يَجهد النّاس في إقامتها، ويَجثون على أربع ليُتقِنوا قائمة الأطعمة: كلّما كانت جميلة، وكلّما بدت جيّدة، كان كلّ شيء له عنده طعم الورق المقوّى.

في مثل هذه الاستعدادات الفظّة، غادر فندقه وسار نحو بيت آل أكسيلرود حيث، في غياب البديل، دُعي إلى تلك السّهرة اللّعينة. الشّارع، في تلك اللّيلة: جوقات موسيقيّة، يؤطّرها خَلاصيّون[1] في زيّ موحّد وأشخاص يضطلعون بدور بابا نويل من شتّى الأحجام يهزّون نواقيس، تسيء أداء أناشيد حزينة أصلاً، وفرق إنشاد تتغنّى بتراتيل لا معنى لها في عطفة شوارع مزخرفة بأشرطة ذات فظاعات متعدّدة الألوان، تجوبها عربات ذات جلاجل، وتغصّ أرصفتها بأناس متوتّرين متورّدي الخدود، على رؤوسهم قبّعات، وبين أذرعتهم هدايا. اضطرّ غريغور أن يجد له سبيلاً متعرّجاً وسط رجال سكارى قبل الأوان، ونسوة

(1) Salutistes: أفراد من جيش الخلاص Armée du salut، حركة عالمية بروتستانتيّة أنشأها في إنكلترا عام 1865 القسّ الميتوديّ وليم بوث (1829–1912).

Twitter: @ketab_n

يصرخن بعصبيّة في وجوه أطفالهنّ، وعربات أطفال، وعربات مجرورة وكراسيّ متحرّكة.

استقبلته شفتا إيتيل الحمراوان الباسمتان وكوكتيل «بلودي ماري»[1] مناسب في يد نورمان. فرك غريغور يديه في البداية أمام المدفأة كما نفعل في مثل هذه الحال قبل عرض هديّة رأس السّنة، وكانت نجماً من الزّجاج من صُنعه، ذو كثافة ضوئيّة متبدّلة وألوان متغيّرة، يلمع بشكل غامض بلا انقطاع ولا ربط بأيّ شيء كان. وهو واقف على كرسيّ، يثبّت النّجم في قمّة شجرة التّنّوب المزدانة بكريات كلاسيكيّة وملائكة من الخزف وشمعدانات صغيرة، تحت تهليل الزّوجين أكسيلرود. ثُمّ انتقلوا إلى المائدة لتناول عشاء حفلٍ تقليديّ- دعنا من القائمة الأزليّة- قبل أنْ يقدّم آل أكسيلرود، وقتَ التّحلية، لغريغور هديّتيهما: من طرف نورمان طبعة لِورْدزْورث[2]

(1) Bloody Mary: ماري الدّامية، كوكتيل إنكليزي من الفودكا متبّل حسب الأذواق بالفلفل والتّابسكو والملح وممزوج بعصير الطّماطم أو عصير اللّيمون...

(2) وليم وردزوورث William Wordsworth (1770–1858) : من كبار الشعراء الانكليز، ساهم مع صمويل تيلر كولردج في ظهور العصر الرومنطيقيّ في الأدب الإنكليزي.

Twitter: @ketab_n

مسفَّرة بجلد العجل، ومن طرف إيتيل، ربطةُ عنق من كريب الصّين ذاتُ انعكاسات متموّجة.

رغم أنّ غريغور يملك عدداً كبيراً من ربطات العنق ولا حاجة له بورْدزْورث، فإنّه لم يُبدِ سوء مزاجه خلال السّهرة: ألّا يبتسم دائماً ليس أمراً استثنائيّاً ولكنّه، عند اللّزوم، يعرف كيف يظهر في مظهر اجتماعيّ قبل أن يلجأ، عندما يحين الوقت، إلى معايرة زمنيّة دقيقة، مستأذناً في أسرع وقت ممكن ولو أنّه يتأخّر ما يكفي من الوقت لكي لا يخطر بالبال أنّه مَلّ. اللّحظة الوحيدة التي دفّأت قلبه قليلاً: عندما رافقته إيتيل حتّى باب الخروج فيما كان نورمان، مشيحاً بوجهه، يجدّد مهضّماته المريعة، وعقدت حول رقبته ربطةَ عنقه الجديدةَ مازحة وقد تكون ثملة بعض الشّيء. ورغم كرهه، حتّى معها، للملامسات الجسديّة- ورغم الخوف العنيف الذي لا يُكبَت والذي داخلَه لحظة من أنّها بصدد خَنْقه-، فوجئ بكونه يجد ذلك ممتعاً. انتصاب صغير، غريغور؟ هيّا، ولو مرّة.

عندما عاد إلى والْدورف، وربطة العنق في رقبته، وَورْدزْورث تحت ذراعه، وجد في بريد المساء ردّ ابن

Twitter: @ketab_n

مورغان على رسالته. وتتضمّن فاتورةً بـ 684.17 دولاراً كفوائد القروض التي منحها أبوه، مشفوعةً بأجمل تمنّيات الوريث. لم يَعُد ثَمّة ما يُؤمَل من هذا النّاحية إذن، والعام الذي سيأتي سيكون حرجاً.

في انتظار أنْ يُسفر الوقت عن وجه أفضل، سوف يعبُر غريغور أيّاماً شبه خاوية، عقيمة بخلاف المعتاد بالنّسبة إلى رجل لم يُر قَطُّ خاملاً. ينام قبل الأوان، ويصحو بعد الأوان، ويمرّ بانتظام أقلّ إلى المكتب، وإنْ حضر كان لا يغادر كنبته السّوداء. في أوقات فراغه، ما يُسمّى الأوقات الضّائعة، وقد بدت له كلّ أوقاته كذلك في الواقع، يتصوّر أفكاراً متفاوتة حول دفع الأجسام المائعة، ويتخيّل عدّة مشاريع لا يلبث أن يتركها- مقياس دوران سيّارة، مُطْلِق مَدٍّ عالٍ مُفاجئ أو مَركبة هوائيّة بلا جناحين. وتتمثّل هذه في متوازي سطوح على شكل مِطبخة غاز، يمكن أن تدخل أو تخرج من الشّبّاك عند الحاجة. قد تنتزع منّا هذه الفكرة ابتسامة إنْ كان لنا مزاج لذلك، إذ يبدو لأوّل وهلة أنّها لن يكون لها أبداً تبعات. والحال أنّنا سوف نخطئ لو ابتسمنا: سوف تعرف بعد خمس سنوات نجاحاً باهراً في

Twitter: @ketab_n

شكل طائرة ذات إقلاع وهبوط عموديّيْن، ولكنْ فات الأوان بالنّسبة إلى غريغور رغم التّسجيل الذي قام به آليّاً بخصوص تلك البراءة.

وغريغور، على أيّة حال، لم يعد يبدو مؤمناً بكلّ هذا. رغم مجده الصّغير ونجاحه المجتمعيّ، فإن تعاقب الخيبات قاده لأوّل مرّة إلى ألّا يرغب في فعل أيّ شيء، هكذا، لم تَعُد الحياة سوى قاعة انتظار طويلة، لا أثر فيها حتّى لمجلّاتٍ مدعوكة على منضدة واطئة ولا نظراتٍ هاربة يتبادلها المرضى.

Twitter: @ketab_n

23

دائنوه، هم أيضاً، ينتظرون. كان غِريغور يميل دائماً إلى نسيانهم وكأنّهم غير موجودين، هم ينتظرون منذ زمن طال إلى درجة أنّهم هم أنفسهم ما عادوا واثقين جدّاً من وجودهم. وكأنّ شخصيّة مشهورة وعامّة بشكل عالميّ، حتّى وإن اختلف النّاس حولها، تُحيل شخوصهم الفقيرة الخاصّة إلى شيء ضئيل، وتمنعهم من الظّهور للمطالبة بحقّهم.

وبفعلٍ انقلابيّ، ضمن فكرة عظمته التي تعلو على القوانين، قد يكون غريغور آل به الأمر إلى اعتبارهم في الواقع مدينين له، وتحوّلت سندات قروضهم في نظره إلى شهادات نَبالة، لها من الشّرف ما يسدّد بسخاءٍ ديونه: من هذا المنظور يصبح مثيراً للشّفقة، وحتّى من غير اللّائق،

Twitter: @ketab_n

أنْ يؤكّد الدّائنون حقوقهم لكي يسترجعوها. في تلك الأثناء كانت الدّيون تتراكم، وتنمو. وفي تلك الأثناء، كان الدّائنون لا يفكّرون أقلّ من ذلك، لا بل كانوا يفكّرون في الأمر أقوى فأقوى: لم يكن ينقص سوى قدْحة كي ينقلب كلّ شيء في الاتّجاه المقابل.

وستكون قضية بائسة لضرائب محلّيّة، مبلغ زهيد يُرجَّح أنّ غريغور اعتبره غير جدير به، هو الذي سيمثّل تلك القدحة المؤسفة: قادته آلة الإجراءات إلى أن يكون مطلوباً أمام المحكمة كأيّ مدنيّ. وبما أنّ مصلحة الضّرائب، وهي ليست شخصاً ماديّاً، تدخّلت، فإنّ القانون بدا مُعطياً الفكرة والمثال والتّرخيص للخواصّ بأن يعربوا عن مطالبهم. ومنذ تلك اللّحظة، تكّثف كلّ شيء بسرعة فائقة دون أنْ تُصلّح الأمور: اتّضح أنّ غريغور معدِم أكثر ممّا نتخيّل، ممّا يتخيّله هو نفسه، لأنّ مُحاسبه لم يجرؤ قطّ على مصارحته. كان عليه أنْ يُقرّ لا فقط بأنّه ما عاد يملك شيئاً، وإنّما أيضاً بأنّه مَدين بكمّيّة مهولة من المال لعدد مهول من النّاس، من بينهم حائكون، وصانعو أحذية، وصانعو أقمصة، ومموّنون بالأطعمة، وباعة

Twitter: @ketab_n

أزهار ومزوِّدون آخرون، دون ذكر جيش من المتعهّدين الفرعيّين، ولا على وجه الخصوص والْدورف أستوريا، الفندق الذي يعيش فيها عيشة أبّهة، بالدَّيْن، منذ سنين.

أعرف أنّ غريغور منفِّر، كريه إلى حدّ يَدفع المرء إلى القول إنّه لم يَنَلْ سوى ما يَستحقّ، ولكنْ رغم ذلك. ها هو بلا فلس مهدّد بالسّجن في وقت كان فيه إديسون ووستنغهاوس وماركوني والآخرون، بعد أن استغلّوا أفكاره التي حصلوا عليها بأثمان زهيدة إنْ لم يكونوا سرقوها في وضح النّهار، يزدهرون في مشاريعهم ويكسبون أقصى المبالغ. لم يكفه أنّه أفلس، بل كان يرى بمرارة أنّ عدداً من المؤسّسات، التي لا تعيش إلّا على اختراعاته، من التّيّار المتناوب إلى الاتّصالات اللّاسلكية مروراً بالأشعّة السّينيّة، تتطوّر بأرباح دون أنْ يَجنيَ أثراً لدولار واحد. إنّه أمرٌ غير مشروع ولكنّ غريغور، بمهارته التي نعرفها لديه في التّلويح بالمعجزات، سوف يتوصّل إلى الخروج من مأزقه بإجراء جولة لدى واسعي الثّراء. مائة ألف دولار من هنا، مائة وخمسون ألف دولار من هناك، جمع ما يسدّد به معظم ديونه، ولِـمَحوِ ما تبقّى،

Twitter: @ketab_n

باع أرض لونع آيلند، حيث يرتفع برجه الذي لم يكتمل. وكان لزاماً عليه أيضاً أنْ يُراجع قليلاً نمط عيشه وينحو به إلى الانخفاض فيغادر والْدورف إلى فندق السانت ريجيس، حيث نزل بالطّابق الرّابع عشر- الذي لا يقبل القسمة على ثلاثة، إذ لم يَعُد يملك أسباب فرض نزواته- وهو أمر ليس سيّئاً بالمرّة.

في الوقت نفسه، كان برج لونغ آيلند مع ذلك قريباً من الاكتمال إلى الحدّ الذي صار معه مريباً في نظر الجيش إذ هدَمه بعد ستّة أشهر، معتبراً إيّاه وكرَ جاسوسيّةٍ محتمَلاً، لا سيّما أنّ الولايات المتّحدة دخلت مؤخّراً في حرب وليست أيّ حرب، ليست كالمزحة الصّغرى مع إسبانيا قبل عشرين عاماً. حرب عالَميّة بكلّ بساطة، أي قاتلة، وهي تدور خاصّةً في البحر، لم تَحِن السّاعة بعدُ للقصف الجوّيّ، ولو أنّها قريبة: كانت الغوّاصات الألمانية، وهي تُغرق كلّ يوم خمسة وثلاثين ألف طنّ من أسطول الحلفاء، قد بدأت تطرح مشكلاً حقيقيّاً.

وهو يقرأ في الصّحف أنّ هيئة الأركان كانت يائسة من العثور على وسيلة للكشف عن تلك الغوّاصات، تذكّر

Twitter: @ketab_n

غريغور، وكان دائم اليقظة، فكرة من أفكاره القديمة. حكاية غامضة عن موجات ثابتة، ذات دفع جوّيّ، وإشعاع وأنوار لاصفة، بدت له قادرة على حلّ المشكل الحقيقيّ، فأسرع يطرحه على هيئة الأركان. رفعت الهيئة بلا استثناء عيونها إلى السّماء إذ رأته، ثُمّ ابتسمت له في أدب وأكّدت له أنّها ستكاتبه. بعد خروج غريغور، اتّفقت على رفض نزوة هذا «المشعبذ» الجديدة، مفضّلة أنْ تجهل عنها كلّ شيء. سوف ننتظر حرباً عالميّة ثانية، بعد الأولى، كي نجد أنّ هذه الفكرة في الواقع ليست سيّئة ما دامت ستتحوّل إلى وسيلة دفاع كونيّة، ونعني بها ببساطةٍ الرّادار.

في الواقع، قال غريغور، عندما عاد في صباح الغد، إنْ شئتم عندي فكرة أو اثنتان أخريان. تقوّست أكتافُ هيئةِ الأركان، المنهارة، لدى وصوله قبل أنْ ترتفع وهي تستمع إليه. هو شيء جيّد فعلاً، راح يشرح، آلة طائرة بلا طاقم، ولا أجنحة، ولا محرّك، يمكن التّحكّم فيها عن بعد وإرسالها لإلقاء قذائف في أيّ بقعة من العالَم، في أبعد مكان نريد. جيّدة، أليس كذلك؟ تطاولت الأنوف معاً أمام عرض هذه الأداة غير المناسبة، والمستبعدة الحدوث والتي لا مستقبل لها- رغم أنّها صارت ما نسمّيه اليوم

Twitter: @ketab_n

صاروخاً، وصار استعمالها مألوفاً لدينا. سنفكّر، قالوا له، وسنخبرك. حسناً، قال غريغور، لديّ أيضاً تصميم بارجة تتصرّف كإنسان آليّ إنْ كان هذا يعنيكم، ألا يغريكم؟ ولكنّهم كفّوا حتّى عن سماعه، كانوا ينظرون إلى وجهة أخرى، بعضهم يمسّدون رؤوسهم وهم يشعلون السّيجار، في انتظار أنْ يَتعب وينصرف في النّهاية.

هو منفّر، وله عدّة عيوب ولكنّه ليس غبيّاً. عندما رأى غريغور أنهم لا يستمعون إليه ولن يستمعوا، بدا أنّه يتخلّى عن نيّة اقتراح نتاج فكره، ويستغني عن حماسه. كانت مساعدتاه تلحظان أنّه يغيّر حياته اليوميّة بشكل محسوس، كأنّما اقتنع بالعطالة، وعلى أيّة حال عَمّا قريب لن يكون بوسعه دفع أجرتيهما. صار أقلّ مواظبة على المكتب والمختبر، يذهب غالباً ليجرّ رجليه في محطّة غران سنترال، رغم أنّه لا ينتظر أبداً أيّ قطار يركبه. وصار يعود بأكثر انتظاماً، في الحقيقة كلّ يوم، إلى برايانت بارك ليغذّي حيواناته الدّائمة ويلجأ حين يطرأ مانعٌ، لتغذيتها بدلاً عنه، إلى خدمات مجّانية لِساعٍ من ويسترن يونيون كان حاز ودّه لأنّه هو أيضاً كان يربّي، في أوقات فراغه، حماماً زاجلاً.

Twitter: @ketab_n

24

الحمامة، مع ذلك.

الحمامة جبانة، مخادعة، قذرة، باهتة، غبيّة، خاوية، دنيئة، غير مجدية.

لا تحرّك المشاعر أبداً، غير عاطفيّة بالمرّة، الحمامة التّافهة وصوتها الأخرق. تحليقها الشّبيه بنَعارة. نظرتها الصّمّاء. نقرُها العبثيّ. رأسها المنزوع المخّ الذي يحرّكه تَراوحٌ محزن. تردُّدها المخجل، وحياتها الجنسيّة المكدّرة. قدرها المنذور للتطفّل، غياب طموحها، وبُطلانها العطن.

ليست كعصفور الدّوريّ الذي يملك سحراً، ولا كالشّحرور الذي يحسن الصّداح، ولا كالغراب الذي لا يَعدم وسامة، ولا كالعَقْعَق الذي له أسلوب خاصّ، هي أفظع من العُقاب الذي له على الأقلّ هدف في الحياة، في

Twitter: @ketab_n

مثل شهوانيّة الجرذ، وأصالة النُّعَرَة، أقلّ أناقة من دودة، وأغبى من غول الأرض[1].

نقتل حمامة دون إحساس بالذّنب كما نسحق صرصوراً، ومن الخطأ أنْ نمتنع عن ذلك. إمّا كسلاً أو احتراماً للذّات، يمنع المرء نفسه من ركلها برجله إلّا إذا رام التدرّب، وحتّى في هذه الحالة فهي ليست أهلاً بها، لأنّه لا يريد أن يخاطر بتلويث حذائه. ولا يَعترضَنَّ أحد عليّ بأنّها، كزاجلة، قدّمت بعض خدمات وقت الحرب، فذلك من حسن حظّها أنْ وَجدت دوراً ضئيلاً، دور ميكانيكا طائرة.

يا للحمامة القذرة، لا تصلح حتّى للأكل، مُقزِّزة في مهدها ذي حبّات البزيلّا الطّحينيّة، ورغم ذلك فهي التي بصدد أنْ تصير طبق غريغور المفضَّل، والوحيد عمّا قريب، فقد آل الأمر بالمخترع إلى التّغذّي حصريّاً، وحيداً في غرفته الصّغيرة، بأبيض[2] الحيوان الذي يَحُدّ عظم

(1) Catoblépas: حيوان أسطوريّ عند الإغريق واللّاتين، يشبه الجاموس الأسود، ذو رقبة صغيرة لا تقوى على رفع رأسه الثّقيل، فإذا ما أفلح كانت نظراته قاتلة.

(2) لحم الصّدر.

Twitter: @ketab_n

ترقوته. غريب.

أجل، يبدو ذلك غريباً ولكنْ يُمكن أن نحاول التّفهم، يمكن أنْ نتخيّل أنّ غريغور، حسب منطق مخصوص، إذ يغذّي الحمام فليس من المقبول أن يتغذّى به في المقابل، يحقّ لنا أنْ نفكّر أيضاً بما أنّه يحبّه حبّاً جمّاً، فلا بدّ أنْ يحبّه حتّى النّهاية. ينبغي أنْ نتذكّر خاصّةً أنّ شراء الحمام من المجزرة لا يكلّف كثيراً.

Twitter: @ketab_n

25

ذلك أنّ غريغور بالفعل، لم يعد يملك فلساً. إذا كانت إدارة السانت ريجيس قد قبلت أن تغضّ النّظر عن الفواتير غير المدفوعة مقابل نقله إلى هذه الغرفة الأكثر ضيقاً، فلا سبيل بعدئذ لدخول مطعم الفندق. لا سبيل أيضاً لمواصلة تعهّد المختبر ولا المقرّات الإداريّة. إذا كان غريغور يحرص على مواصلة النّشاط، ولو في الظّاهر، فإنّه استعاض عن عمل محاسبه بخدمات محدّدة يطلبها من مكتبِ إدارة، وعن مساعدتيه بهاوي تربية الحمام ساعي ويسترن يونيون الشّابّ، القليل الصّرامة في طلب مستحقّاته، كان يشغّله نصف الوقت مستخدَماً جوّالاً.

بعد أنْ منحه آل أكسيلرود ما يسمح له بتجهيز مكتب في خَلوة بفندق بلاكستون، سيحاول غريغور

Twitter: @ketab_n

أن يستغلّه لبيع بعض مشاريع آلات جديدة عن طريق المراسَلة. ولكنّها كان يبدو بمرور الوقت أنّها إنّما صُمّمت لكي يشغل وقته، ليس عن قناعة بل بآليّةٍ ومحضِ عادةِ ابتكار. ضاغط سيول مطّاطيّة. واقي صواعق بأنساق. سراج قاطرة. مولّد عنَفيّ[1] محرَّك بالماء. كلّ الأجهزة لها إرشادات، نلمس فيها أسلوب غريغور المتواضع، تمتدح طبيعتها المجدِّدة بَلْهَ الثّوريّة، سهلة الاستعمال، عالية الأداء، باختصار، ذات تفوّق ساحق.

إلّا أنّ تلك العمليّات، وغيرها كثير، لن تشهد تتمّة. ولا يُعزى ذلك فقط، كما يلاحظ غريغور بأسف، لاستخفاف معاصريه. إذ يصادف أيضاً لدى الإنسان ألّا تجري الأمور كما كانت من قبل، وأنّ الوضع يتخلّع. هنا وهناك، من خلال بعض التّفاصيل وبشكل غير محسوس، نرى كيف يتلف الذّهن: كالمادّة. يحدث ذلك عبر ظواهر زيادة وظواهر نقصان: عناصر ماكرة ينضمّ بعضها إلى بعض- وسَخ، غبار، فطريّات- فيما عناصر أخرى بالغة الأهمّيّة تتفتّت- بِلى، إرهاق، تآكل. دون ذكر الصّدأ الذي

(1) Turboalternateur: مولّد كهربائيّ مكوّن من عنَفة ومُنوّبة مُركّبتين على محور واحد.

Twitter: @ketab_n

يهاجم الخلايا العصبيّة ويقرضها ويلتهمها مثل الذّرّات حيث تتبدّى آثاره في أنواع شتّى من الإبطاء والإرهاق والتفصُّم والإهمال والعشوائيّة. هو مسار بطيء، مُلتَوٍ، غير بادٍ في البداية وأحياناً، فجأةً، يتجلّى بادياً للعيان.

يحدث هكذا أنْ تتولّد في ذهن غريغور فكرة لم تخطر، في ظنّه، ببال أحد حتّى تلك اللّحظة. هذه طريقة جريئة تتمثّل في إزالة الغاز عن النّحاس، بفضلها، وبعد القضاء على كلّ فقاقيع الغاز التي يحتوي عليها، يمكن الحصول على معدن أكثر كثافة وبالتّالي أجود. وبعد مساعٍ حثيثة، أمكن له عرض هذا التّصميم الجريء على مصلحة بحوث العِدانة[1]. ولمّا كان المهندسون منبهرين بسُمعته، فقد فحصوها، ولكنْ ما لبثوا أن اكتشفوا أنّ غريغور، برغم صيته ككهربائيّ عظيم، لا يفقه كثيراً في علم المعادن. حدّدوا له موعداً، وبما أنّهم يعرفون شدّة حساسيّته فقد احتاطوا كثيراً في طريقة التّعامل معه، وتوخّوا حذراً شديداً ليشرحوا له أنّ منظومته الجريئة، رغم أهميّتها القصوى، لا يمكن أن تتجسّد: إذ من الصّعب أن

(1) Métallurgique: صناعة استخراج المعادن وتنقيتها.

Twitter: @ketab_n

نستخرج فقاقيع غاز من النّحاس، لأنّه في النّحاس، لو تعلم، لا توجد فقاقيع غاز. فليس من اللّاطبيعيّ، أليس كذلك، حاولوا أن يشرحوا له بلطف، أنّ هذه المنظومة، لا أحد فكّر فيها من قبل. جمع غريغور أوراقه دون كلمة وانسحب ماسحاً شاربيه.

يحدث أيضاً أنْ يقدّم، دون أن يمضي بها إلى نهايتها، سلسلة براءات اختراع مرتجلة عن ميكانيكا السّوائل فيُقبل تسجيلها في نوع من المجاملة وحتّى كبوادر إشفاق. يصادف أكثر فأكثر أنّ الكشوف والمشاريع والتّقارير والتّقديرات التي يحرّرها غريغور، حين يعرض خدماته الاستشاريّة على كلّ قادم، تقابَل دائماً بالرّفض. وبعض الشّركات التي يصرّ بعناد على إقامتها يتّضح فورَ إنشائها أنّها غير مُجدية. كلّ ذلك، لا يعود عليه في سيّئ الأعوام وأحسنها إلّا بفتات، لا يفيد على أيّة حال إلّا في تسديد بعض الدّيون المعلَّقة ودفع أجرة السّاعي مرّة على اثنتين. مرّة على اثنتين لعملٍ في نصف وقت: استياء السّاعي، حتّى وإن طلب القليل، إذ جعل يُطالع عروض الشّغل.

ولئن بدأ غريغور منذئذ يُقلِّل من مخالطة النّاس،

Twitter: @ketab_n

بصرف النّظر عن ضعف إمكاناته، فلأنّ رغبته تضاءلت. ومنذ إقرار قوانين منع الكحول كان يكره عواقبها: لا لأنه يحبّ الخمر فهذا ليس من طبعه، بل لأنّ الجوّ الذي استقرّ لم يعد يناسب ذوقه. ما سوف يُدعى فيما بعد الأعوام المجنونة- كحول خشب في خمّارات سرّيّة، فتيات متحرّرات ورقصات شارلستون[1]. ألّ كابوني[2]، ألّ جولسون[3]، وانهيارات ماليّة وأبناء ذوات- كلّ ذلك يَصدمه إنْ قليلاً أو كثيراً. وبعد أن صارت صحبة الرّجال، ناهيك عن صحبة النّساء، صعبة، لم يبق لغريغور في الواقع سوى الحمائم.

إزاءها، كان غريغور يعلو درجة، فقد استبدل دور

---

(1) Charleston: نوع من الرّقص الصّاخب يستمدّ اسمه من مدينة شارلستون بكارولينا الجنوبية، ظهر في الولايات المتّحدة عام 1920، قبل أن ينتقل إلى فرنسا عام 1925 مع النّجمة السّوداء جوزفين بيكر (1906–1975).

(2) Alfonso Capone (1899–1947) صعلوك من أصل إيطاليّ. أشهر قطّاع الطّرق في القرن العشرين. كوّن ثروة في تجارة الكحول زمن الحظر في عشرينات القرن الماضي، وساهم في انتشار الجريمة المنظّمة، وأعطى سمعة سيّئة لشيكاغو كمدينة خارجة عن القانون.

(3) Al Jolson (1886–1950): مغنّ وممثّل من أصل ليتواني. من أكثر فنّاني الميوزيك هول شعبيّةً في أمريكا خلال القرن العشرين.

Twitter: @ketab_n

الحاضنة بدور المغذّية: لم يعد يكتفي بتغذية الحمائم، بل صار يفكّر في علاجها. وبعد أن تزوّد بمعلومات دقيقة عن عالم آكلات الحبوب، ألمّ بعاداتها وتقاليدها، وسلوكها وخاصّة بتكوينها المرَضيّ. كان يغدو وبيده حقيبة الإسعافات الأوّليّة ليذرع دون ملل الشّوارع والمرافئ والحدائق العامّة، معتنياً بتلك الحيوانات، وسرعان ما صار يتفطّن للأعراض المنذرة بالخطر في سلوكها- كآبة، نحول، سعال يصحبه صفير، التهاب مفاصل أو عرج، إسهال وتصلّب الرّقبة- لكي يهبّ لنجدتها في عين المكان. تقويم بالجصّ، حقن بالإبر، تطهير، تمسيد، كان يقدّم العلاج اللّازم لكلّ حالة، وإنْ كان يمتنع عن التّدخّل في حضور أعراض أكثر خطورة: مثلاً عندما تشرع حمامة في المشي مُتقهقرةً، أو تخطئ الهدف فلا تستطيع التقاط حبوبه، وغريغور يعرف كيف لا يردّ ذلك السّلوك إلى سذاجة النّوع مضرب المثل- والتي يُنكرها على أيّة حال- بل إلى إصابة بمرض الصّرع[1]، داء نهايته محتومة ولا حلّ له إلّا

(1) Paramyxovirose: نوع من الوباء يصيب الحمام، من أعراضه اضطراب الجهاز العصبيّ المركزيّ والإسهال.

Twitter: @ketab_n

بالقتل الرّحيم- وهو ما يرفضه على أيّة حال.

ثُمّ جالت بذهنه عفوَ الخاطر، ما دام الأمر كذلك، فكرةُ الانتقال من العلاج المتنقّل إلى الأخذ على عاتق المؤسّسة، وتأسيس مصحّة للحمام. عندئذ سوف تُطرح مشكلة المقرّ. بما أنّه يعلم أنّ إدارة السانت ريجيس ستُظهر تحفّظاً شديداً على هذا المشروع، فليس بوسعه أنْ يُجير لمدّة طويلة عدداً كبيراً من المرضى في غرفته. اختار ألّا يقبل سوى مريض واحد في الآن نفسه، وحالة بحالة، للمتابعة الطّبيّة القصيرة المدى أو الإسعاف الطّارئ. لهذا الغرض استأجر، من بائع طيور قرب الفندق، مَطْيرة تكون بمثابة قاعة انتظار حيث سينزّل مرضاه قبل الكشف عليهم. في تلك الأثناء كان يواصل دراساته النّظريّة والتّطبيقيّة، مطوّراً مهارته في علاج الأجنحة المجروحة والأرجل المكسورة، والغنغرينة وتساقط الرّيش، وصار يحذق تشخيص الجدريّ من أوّل نظرة، والتّعرّف على النّقرس، والكشف عن الطّفيليّات الجوفيّة، والتّمييز بين الانتفاخ الرّئويّ وبَلع الهواء، ولا يلجأ إلى الأطبّاء البيطريّين إلّا إذا عجز عن تشخيص مرض بالغ الدّقة أو الخصوصيّة.

Twitter: @ketab_n

ولكنّ شغفه لم يقنع بهذه الحركة. فبما أنّه كان لا يني يجد صعوبة في مفارقة مرضاه، قرّر أنْ يتحدّى القانون الدّاخليّ للفندق ويحتفظ بمجموعة صغيرة في غرفته، حيث بنى مسبّقاً سلسلة من الأوكار بواسطة الخيوط والأسلاك الحديديّة والقطن، قبل أنْ يُخزّنها. وفي إحدى الأماسي، في ساعة متأخّرة، استطاع أنْ يغافل حارس اللّيل بخدعة، ونقل خفيةً صندوقاً كبيراً مغطّى يحوي ستّة طيور مصابة بمرض مُزمن حتّى الطّابقِ الرّابع.

لن تكون في البداية سوى فرقة صغيرة متبدّلة، لا تزيد عن ستّة، يؤويها عنده. ولمّا كان يتغيّب أحياناً لأداء بعض الشّؤون التي بقيت له في مكتب بلاكستون، فقد عهد بالحيوانات إلى خادمةِ غرف شرى صمتها بثمن بخس، وكلّفها بأنّ تسهر عليها وفق تعليمات محدَّدة. ولكنّه لم يقنع بذلك وما لبثت الأوكار أنْ تضاعفت إذ إنّ المرشّحين العليلين لا يَنقصون. وعمّا قريب سوف يكون عدد المقيمين خمس عشرة حمامة جريحة، ثُمّ عشرين، فثلاثين حتّى صارت الغرفة لا تتّسع للعناية بها، ما دفع غريغور إلى تكليف امرأتين أخريين من خادمات الفندق لتنظيم

Twitter: @ketab_n

أدوار حراسة عند مخدعها. كلّ تلك الحمائم سوف تهدل بصوت مسموع، وبدأت روائح غريبة تنتشر في طابق الفندق، وجعل الزّبائن يتذمّرون فاستدعت إدارة السانت ريجيس غريغور وأمرته بوضع حدّ لمصحّته الطّيْرية.

أُغلقت المؤسّسة، وتمّ تعقيم المحلّات، واضطرّ غريغور إلى أنْ يقنَع بوحدته في البداية، حاصراً علاجَه في زيارات يوميّة إلى المَطْيَرة، التي تحوّلت إلى مستوصف حيث يجيء بانتظام بمرضى جُددٍ ويعمل على شفائهم. ولكنّ الأمر لم يعُد كما كان من قبل. كان يخرج من هنا كئيباً دائماً، ولكي لا يعود إلى غرفته الخالية بالفندق ويغيّر أفكاره، كان يجوب محطّة غران سنترال- أو، كما هي الحال هذه الظهيرة، يقصّ شعره عند الحلّاق.

Twitter: @ketab_n

26

مقصوص الشّعر بجدّة، حليق الذّقن عن قرب، والشّاربان معدَّلان في شكل شبه منحرف دقيق، غادر غريغور بعد ساعة حانوت حلّاقه. وكان ملاصقاً لقاعة حِلاقة للسّيّدات حيث امرأة، وقد مرّت الموضة من هنا، تكنس على الرّصيف شعوراً طويلة مقصوصة، شكّلت كدساً متحرّكاً ومُلتبِساً من مناطق بنّيّة وشقراء وصهباء وسوداء متشابكة، ونادراً ما تكون بيضاء أو رماديّة. هناك أبصر غريغور حمامة جديدة تَضلع بإعاقتها وسط المنطقة الشّقراء حيث تاهت.

فحص غريغور الحمامة. كانت شعرة طويلة في لون البلاتين أو الأشقر البندقيّ قد التفّت حول قائمتها السّفليّة اليمنى، ثُمّ تورّطت اليسرى بدورها، فإذا الحمامة

Twitter: @ketab_n

مُعطَّلة الحركة. في كلّ حركة تأتيها، تزداد الشّعرة توغّلاً في الحراشف التي تغطّي رجليها، فتشكّل رباطاً لا ينفكّ يضغط ويكبس الدّورة الدّمويّة. مشلولاً هكذا، كان الطّائر يحاول في دفعات أنْ يستعيد عبثاً طيرانه، عاجزاً عن الانطلاق بخفق جناحيه فقط، كمثْلِ محرّك مزدَوج محروم من عجلات الهبوط.

وإذا كان الحمام، أحياناً، يُظهر عناداً غبيّاً حين يلتقطه غريغور بكلّ عطف، فيقاوم بالمنقار والمخالب حدّ جرحه، وإذا كان يتخبّط مثل عجوز تريد مساعدتها على قطع الطّريق والحال أنّها لم تطلب منك شيئاً، فإنّه لم يجد صعوبة في التقاط هذه الحمامة. صارّاً منقارها بشريط مطّاطيّ ليجبرها على السّكوت ويخفيها تحت جناح سترته الرّدنغوت، عاد بها خفيةً إلى السانت ريجيس متحدّياً قانون الفندق.

ما إنْ دخل الغرفة حتّى أعدّ حمّاماً لرجلي الحمامة في محلول من الماء الفاتر والمُطهِّر. تركها تنتقع وأحضر عُدّة الجراحة المناسِبة: مشرط، ومِلقط حواجب، وعود أسنان. بعد ثلاث ساعات، قدّر أنّ هذا الحمّام كان كافياً لتطرية

Twitter: @ketab_n

اللّحم، وبحث عن الاتّجاه الذي سوف يبسط الشِّكال. مرّر عود الأسنان بين الرِّجل والشّعرة المغروزة، قطعه بالمشرط مَقطعاً مقطعاً، وأفرغه تباعاً بواسطة الملقط.

عشرون دقيقة كانت كافية لهذه العمليّة التي تستوجب بعدها، قدّر غريغور، راحة بيومين أو ثلاثة لكي تعود الحمامة كما كانت خفيفة الحركة. ولكنْ في انتظار ذلك، جعل يتأمّلها. يتأمّلها طويلاً. يمعن في تأمّلها طوال السّاعات التّالية، ورغماً عنه تقريباً، حتّى أنّ تأثير موديل وشكل غريبين بدا أنّه يستحوذ للوهلة الأولى عليه. كان افتتاناً يقظاً، أخّاذاً، حسن الالتفات، مجدّداً للشّباب، جُهداً دون نزع الفولتيّة لم يشعر به من قبلُ مع أيٍّ كان، إلى الحدّ الذي تساءل فيه عند آخر النّهار ما إذا كان نوعاً من العاطفة لم يعرفه إلّا سماعاً دون أنْ يُعيره انتباهاً حتّى ذلك الحين، شعور صعب التّحديد، كيف يجد العبارة الصّائبة. هي حالة، لنتجرّأ على هذه اللفظة، حالة عشق.

هذا الطّائر هو في الواقع أنثى ذات ريش أبيض صافٍ، وجناحين مخطّطين في نعومة بلون رماديّ فاتح، ورقبة تكاد تتموّج بلون خُبّازيّ. منقارها القرمزيّ منقّط بأصفر

Twitter: @ketab_n

زعفرانيّ، ورجلاها متباينتان بين ورديّ صوزْ ورماديّ المطر، فيما ذيلها النّاصع ينثني قليلاً على طريقة طاووس. لا شكّ أنّ نسَبها أجنبيّ لأنّ عينيها، المدوّرتين في العادة لدى آكلات الحبوب، مغبونتان برموش، وتلك حالة فريدة. نبرتُها المبحوحة في عذوبة، مشيتها الأنيقة الوَجلة وطريقتها في حني رأسها إلى جانب، مُخفيةً نظرة حنين، تكبس على قلب غريغور وتدفع بما يشبه الدّموع إلى عينيه.

علامة ضعف لديه، انبعاث أفكاره عن العظَمة أم هي بداية خرَف: هذه الحمامة تذكّره بأقوال المنوَّرين الذين كانوا، زمن مجده الفتيّ، يزعمون أنّه ظهر بينهم على جناحي حمامة، دون أن يتوصّل فكره العقلانيّ إلى طردها. ثُمّ نتأ في عقله الخصب على الدّوام أنّ بإمكانه إقامة ما يشبه حواراً، ليس أقلّ منطقيّة من حديثه مع سكّان المرّيخ في الواقع.

اعتنى بالحمامة كامل الوقت طوال أسبوع، وبعد أن شُفيت من إعاقتها الحركيّة، كان عليه أنْ يُطلقها مُمتثلاً بذلك لقانون الفندق. غير أنّ الحمامة، حتّى وإنْ شُفيت تماماً من مشكلة رجليها، ما زالت فيما يبدو عليلة، كئيبة

Twitter: @ketab_n

ومُتعَبة. صحيح أنّه يمكن اعتبار أنّ تلك العلامات تُعزى إلى مجرّد تماثل للشّفاء ويكفي أنْ تودَع الحمامة للنّقاهة عند بائع الطّيور، إلّا أنّ غريغور ينبغي أن يقرّ أيضاً أنّه لن يحتمل ذلك. لقد بلغ تعلّقه بها حدّاً سوف يتألّم من جرّائه لو تخلّى عنها. في غفلة من الجميع وتَحدٍّ للقوانين الفندقيّة، قرّر أن تُقيم معه في غرفته، وأنْ يعيش معها كما يعيش مع الخطيبة التي لم يَظفر بها قَطّ.

غير أنّ هذا الرّباط السّرّيّ لا يمكن له أنْ يستمرّ في حالة اندماج دائم، فما تبقّى لغريغور من أشغال لا يزال يَضطرّه أحياناً إلى الخروج- والحياة المشتركة، كما نعلم، تَفترض أنْ نُهاتف ثلاث مرّات على الأقلّ الكائن المحبوب إذا ما ابتعدنا عنه. فلجأ من جديد، وبسرّيّة تامّة وبخشيش باهظ قياساً بضعف ميزانيّته، إلى مديرة شؤون طابقه لكي تعتني بالحمامة في غيابه. وإذا ما دعته مساع أو التزامات إلى التّأخّر، فإنّ مديرة شؤون الطّابق تتولّى الرّدّ على مكالماته اليوميّة السّتّ لتنقل إليه حالة الحمامة، مثلما تتولّى تغذيتها حسب حِمية مُعيّرة، مختارات من الحبوب الطّريّة والمتنوّعة مخزونة في الغرفة بغير انقطاع.

Twitter: @ketab_n

من بين التزامات غريغور، لم تَبق سوى مآدب العشاء في بيت آل أكسيلرود، كناجٍ وحيد من حياته الاجتماعيّة الرّاقية. وبما أنّ الزّوجين لم يلبثا أكثر من بضعة أيّام كي يلاحظا عليه غرابته، وشروده، وانشغاله، فقد اضطُرّ المخترع إلى تفسير ذلك بإيحاءات غامضة عن دخول مفاجئ لشخص في حياته، ولكنْ دون أن يجرؤ على الاعتراف بأنّه حيوان، وعياً منه بغرابة الظّاهرة. استبدّ سوء فهم بذهن إيتيل، فأظهرت في البداية اهتماماً مُتصنّعاً، تبعه تهيّج مُقنَّع ثُمّ غيرة صريحة تسرّت عليها بالبرود. ولمّا كان العاشق لا يستطيع أنْ يصمت طويلاً ولا أنْ يمنعَ نفسه من طرح ولعه بالتّفصيل حالما يمكنه ذلك، أكّد غريغور أنّ موضوع عشقه ليس ما نسمّيه عشيقة بل هو تابع لفصيلة الحماميّات، وهو ما أثار في إيتيل ارتياحاً، مرِحاً في البداية، ثُمّ جليّاً.

ولكنْ بما أنّ غريغور، بعد أنْ باح بما باح، لم يعد يَحول نفسه عن ذكر المزيد من الأخبار، صار لا يشير مباشرة إلى الحمامة كحيوان مدجّن بل في عبارات خاصّة برفيقة آدميّة، وبما أنّه لم يعد يتحدّث إلّا عنها، ناب عن المرح

Twitter: @ketab_n

المرتاح لدى إيتيل انزعاج ثُمّ نفاد صبر إلى أنْ عادت الغيرة إلى الظّهور، بأكثر جلاءً هذه المرّة لأنّها ملوّنة بعدم الفهم، والغمّ وحتّى الازدراء، ومتوارية خلف برود أجلى- بما يُرضي أنغوس نيبر رضاءً تامّاً.

كان الشّابّ ذو الوجه المذعور في تلك الأثناء قد وجد لنفسه موقعاً أكثر استقراراً إلى جانب نورمان، منقشعاً من ظلّه ليحوز فرادته. لم يَعد سكرتيراً فقط بل صار يشغل منصباً وسطاً بين الشّريك والابن بالتّبنّي، معزّزاً مكانته في بيت آل أكسيلرود دون التّخلّي عن فكرة إغراء إيتيل في النّهاية، ولو أنّ اعتقاده ذاك لا يَني يتضاءل يوماً بعد يوم.

شيئان صغيران تغيّرا في الأثناء لدى أنغوس. الرّواتب التي يصرفها له نورمان مكّنته في البداية، لشدّه اقتصاده، من أنْ يشتري بالدَّيْن سيّارة جميلة مستعملة مغزليّة الشّكل ذات سقف متحرّك، من نوع دويزنبرغ لها محرّك بثماني أسطوانات مصطفّة، سيّارة مكشوفة ذات جوانب خضراء ووقاء محرّك أزرق، وأجنحة عريضة بنّيّة لحماية عجلات ذات دواليب مطّاطيّة نظيفة وحوافّ وقضبان صفراء فاقعة. وذلك أفخر ما يُصنع وأغلاه، وقد أثقل

Twitter: @ketab_n

أنغوس كاهله بالدّيون من أجل هذه السّيّارة الأكبر من حجمه. حتّى وإن لم يظهر ذلك في عينيه الأشدّ ذعراً بسبب النّفقات، فقد سُرّ بها كثيراً. كلّما أمكن له ذلك، وضع سيّارة الدّويزنبرغ تحت تصرّف إيتيل ليقودها في قضاء شؤونها. ولكنّها كانت ترفض في الغالب، وبما أنّ قوانين الحظر قد ألغيت، فالشّيء الصّغير الثّاني كان إقبال أنغوس على الشّرب، بغير اعتدالٍ والحقّ يقال، كي ينسى هذا المأزق الغراميّ. كانت النّظرة التي يسلّطها على غريغور لا تزال معادية بعنفٍ ولكنّها أيضاً ملتبسة نوعاً ما، ففي هيئته المذعورة، لا يبدو أثر ذلك عليه بشكل بالغ.

أمّا نظرة غريغور إلى الحمامة، فهي لا تفتأ تنشغل. ولمّا كانت صحّتها لا تزال فيها يبدو غير مأمونة، فقد كان يحرص على إعادتها إلى نشاطها بتنويع حِميتها الغذائيّة أو بالتّفسّح بها على ضفّة نهر هودسون وشواطئ لونغ آيلند، محاولاً أنْ يُقوّيَها بهواء البحر أو، حسب نظريّاته القديمة، بصدمات كهربائيّة صغيرة كان يُخضعها لها بواسطة مُولّدٍ قديم. لا بل إنّه نظّم لها، ذات صباح، عطلةً إذ عهد بها للسّاعي الذي يقيم أهله في الرّيف، مع قائمة من التّوصيات لا

Twitter: @ketab_n

تنتهي. صحيح أنّه فارقها مُكرَهاً ولكنْ كلُّ شيء يَهون في سبيل تعافي الحمامة، التي لن يأتيها غير المفيد من أسبوع في الهواء النّقيّ. في ذلك اليوم، ألفى غريغور نفسه وحيداً منذ انتهاء الصّباح، وقضّى أمسية حزينة وطويلة دون أن يغادر سكنه أو يتوصّل إلى العمل، وهو ما صار يؤدّيه بشكل متناقص، وحتّى أنْ يقرأ الصّحف التي كان يورّقها دون أن ينظر إليها. كان يستعدّ لتناول العشاء وحيداً في غرفته خلافاً لعادته حين أرغمه خفق أجنحة متواصل إلى الالتفات نحو النّافذة فإذا بها هي تضرب الزّجاج ضرباً خفيفاً بمنقارها، وقد عادت بوسائلها الخاصّة مُنهَكةً. عندما فتح لها غريغور النّافذة، كان قلبه يَخفق.

في الأيّام التّالية، لم يبدُ أنّ شيئاً تحسّن. كان الطّائر يمتنع عن الأكل أحياناً، ويبدو عليه إرهاق شديد، مع لحظات غيبوبة تنشأ خلالها نوبات سعالٍ، خفيفٍ في البداية، ثُمّ أجشَّ ومتشنّجٍ، منذرٍ بالخطر ومصحوبٍ بحمّى مفاجئة. ورغم معارف غريغور، كان لا بدّ أنْ يلجأ إلى طبيب بيطريّ استقدمه على عجل. وبعد كشف طويل وجسّ، وفحص لعمق العين، وقياس للضّغط وثلاث ضربات

Twitter: @ketab_n

بمطرقة لفحص الانعكاسات العصبيّة، رفع الأخصّائيّ نظرة يائسة نحو غريغور وهزّ رأسه ببطء ليعلن عن تشخيصه. وعلى غرار مدام دو بومون[1]، ومارغريت غوتييه، وجرميني لاسيرتو، وكلاوديا، وفانتين، وفرانسين الشّهيرة بميمي[2] وبطلات كلاسيكيّات أخريات، كان ينبغي وا أسفاه الإقرار بأنّ الحمامة تَحمل كلّ أعراض السّلّ- وهذا المرض، في ذلك الوقت، ما كان له علاج.

(1) Jeanne–Marie Leprince de Beaumont (1711–1780): مربّية وصحافيّة وكاتبة فرنسيّة، من أشهر أعمالها «الحسناء والوحش».

(2) Marguerite Gautier، Germinie Lacerteux، Claudia، Fantine، Francine: بطلات روايات فرنسيّة كلاسيكيّة لفكتور هوغو وألكسندر دوما الابن والأخوين غونكور.

Twitter: @ketab_n

27

بعد عشر سنوات، كان غريغور يلبس جوربيه قبل أن يسحب حذاءه من تحت السّرير. لبسهما ببطء في تلك الهيئة الرّصينة التي يتّخذها أحياناً رجال في مثل سنّه حين يقومون بأنشطة مماثلة، تعبير جهم لولد عجوز وحيد، منظَّم، دقيق، معزول عن العالَم ومُنْكَبّ على مهمتّه.

صحيح أنّ جسده والدّيكور تغيّرا. انحسر الفضاء الفندقيّ حوله إذ لم يَعد له سوى غرفة بائسة تُطلّ على الفِناء، وإذا كانت عاداته المستهجَنة لم تستطع إلّا أنْ تتضاعف مع السّن، فإنّ حركاته صارت أكثر بُطئاً واضطراباً وأحياناً يشوبها ارتجاف خفيف. عندما يلقي نظرة عبر النّافذة، لم تَعد نظرته تقع على الشّسوع النيويوركي كما كان الشأن من طابقه الرّابع عشر بالسانت ريجيس، الذي يسيطر على

Twitter: @ketab_n

المدينة كلّها لغايةِ النّهر. انتهت السّماء الكبرى المأهولة ببروق فوق خطّ السّماء[1]. عبر زجاج نوافذ فندق نيويوركر، حيث صار يقيم، لا يرى قبالته غير جدار بلا نوافذ، وخلفَه، مغروزة على ركيزة ثلاثيّة القوائم، الحمامة محشوّة بالقشّ.

عند موتها، دفنها في البداية خلال موكب خاشع. ثُمّ ما لبث أنْ تدارك أمره، فأخرج جثّتها وسلّمها إلى محنّط حيوانات وطيور. ولكنّ الحيوان، وإن يكن محنّطاً، كان لا يزال، حسب إدارة السانت ريجيس التي ضاقت ذرعاً، يجلب الطّفيليّات. محض تعلّة، لأنّ الأذيّة الأكثر إزعاجاً هي قوائم الحساب غير المدفوعة التي أدّت في النّهاية إلى إشعار غريغور بضرورة إخلاء الغرفة.

اضطُرّ إلى أن يُبدّل سكنه، عاماً بعد عام، ومن فندق إلى فندق، وكلّها موجودة تقريباً في المحيط نفسه ولكنْ برفاهٍ أقلّ كلّ مرّة بحسب هبوط مداخيله. نزل أوّلاً في بنسلفانيا، ثُمّ انتقل إلى غوفرنور كلينتون وبعدها حطّ

(1) Skyline: بانوراما المدينة، خطّ أفق اصطناعيّ ترسمه بنية المدينة في شمولها، وعادةً ما تُستعمل اللفظة في حضور ناطحات السّحاب.

Twitter: @ketab_n

رِحله هنا، في نيويوركر، فندق أقلّ بريقاً، وأقلّ زبائن ولكنّه أقلّ تكلفة بكثير، وخاصّة، أنّه يغضّ الطّرْف عن طيوره التي كانت هنا، بالعشرات.

في سنّ السّبعين، وحيداً في غرفته كالعادة، كان قد أتمّ لبس ثيابه هذا الصّباح. رغم أنّ ثيابه منظّفة ومكويّة دائماً بعناية، فهي ما عادت تأتي من نفس الخيّاطين كذي قبل- حتّى وإن احتفظ غريغور ببعض ما يرجع عهده إلى زمن تألّقه، يتعهّدها بعناية لكي لا يلبسها إلّا في المناسبات الكبرى، وإن ازدادت ندرة. من المائتي قميص لم يبق له مثلاً إلّا نصف دستة، أمّا بقيّة ثيابه فقد تضاءلت كمّيتها. بعض تلك الأقمصة، المتهرّئة الأكمام، بدا عليها البِلى أيضاً حول الرّقبة، ما اضطّر غريغور إلى أنْ يتعلّم إعادة تثبيت زرّ مفكوك بنفسه، ويعزّز حاشية، ويكلّف خيّاطة في الجوار بقلب رقبة قميص حينما يفرض التّهرّؤ ذلك. بل إنّ القميص الذي لبسه بدا له ذا رائحة غريبة، ريح خفيفة لغبار حامض ممزوج بزبدة زَنِخة. وبما أنّ ذلك القميص، رغم طول عهده، نظيف تماماً كما هو كلّ يوم، تنهّد غريغور واستسلم للظّنّ بأنّ تلك الظّاهرة متأتّية من

Twitter: @ketab_n

جسده هو، ومن إرهاقه وتعكّره.

لبس جَوربيه بتدقيق مفرط. جوربان طويلان، في نصف طول جوارب النّساء، يصعدان حتّى الرّكبة، ويستوجبان تقنية بعد تشمير السّروال: وسَّط غريغور بدقّة طرَفَيهما وفق اصطفاف أصابع قدميه لكي يتكيّفا من بعدُ مع عقبيه. ثُمّ كان عيه أن يَرفعهما بعناية على طول كلّ رجل دون تجعيد. ثُمّ جعل ينتعل حذاءه، عاقداً ببطء رباطة في شكل ضفيرة مضاعفة. ليس من الأناقة أن يُضاعف الضّفيرة، غريغور لم يكن يفعلها من قبل، ولكنْ إذا لم يكن ذلك أنيقاً فهو أكثر ضمانة. ذلك يُجنّب غريغور، إذا انفكّ رباط في النّهار، أن يُضطرّ إلى الانحناء لإعادة ربطه- مثلُ تلك الحركات، وهو ما بات يزداد إحساساً به، يُجهده.

تساقط شعره وصار قليلاً ورماديّاً، وانتهى به أمره إلى حلق شاربَيه عندما لاحظ أنّهما لا يزالان أسودين مثل حاجبيه، ولم يكن متغنِّجاً كي يَصبغهما. غير أنّه لا يزال ناحلاً، يقظاً، خفيفاً ولو أقلّ مرونة، ولكنّ بنيته الجسديّة مرتبطة أغلب الظنّ بحِمية غذائيّة مُلزِمة إلزاماً شديداً. فإذا كان صحيحاً أنّ مطعم نيويوركر دون جودة مطاعم

Twitter: @ketab_n

الفنادق السّابقة، فإنّ المسألة لا تُطرَح من هذه الزّاوية إذ إنّ غريغور لا يمكن أن يرتادها. لم يَعد له ما يكفي من المال ليَطعَم بصفة طبيعيّة، إذ صار يتغذّى بالحليب السّاخن وبعض المرطّبات الجافّة، التي يحصل عليها في علب معدنيّة مطليّة، من النّوع نفسه دائماً، ويحتفظ بها بعد إفراغها. بعد أنْ وافق مسيّرو الفندق أنْ يُثبّت نجّار رفوفاً في أحد جدران غرفته، وضع عليها ما تبقّى له من ممتلكات في تلك العلب المرقّمة بدقّة. أمّا الجدار المقابل فكان مشغولاً بأقفاص تُجير نزلاءه، صنعها النّجار نفسه الذي أنجز أيضاً، حسب تخطيطات غريغور، دشّاً صغيراً مزوّداً بستائر، تستغلّه كلّ حمامة ثلاث مرّات في الأسبوع.

في الأشهر الأولى التي عقبت نزوله بنيويوركر، كانت إيتيل تزوره بين الحين والحين ولكن سرعان ما صار غريغور، وله من الكِبْر ما لا يحتمل معه أنْ ترى عن قربٍ تطوّرَ سقوطه، يرفض زياراتها. لم يعد يلتقي بها إلّا في الخارج، في الحدائق الصّغيرة العامّة تحديداً حيث تُرافقه، وتشتري بنفسها أكياس الحبوب فيما كانت أحاديثهما تتدهور.

Twitter: @ketab_n

لم تلفظ أحاديثهما أنفاسها إلّا في السّجلّ الغراميّ- مع أنّه لم يرَ النّور قطّ بشكل صريح- لأنّ غريغور ظلّ لا ينضب له مَعين حينما يدور الكلام حول مشاريعه، مستعيداً حكايته القديمة عن طاقة جديدة ما عاد أحد يرغب في التّفكير فيها. كان يؤكّد باستمرار، لها ولمن يريد أنْ يسمعه- ولو أنّ من يريدون الاستماع إليه في الظّاهر في تضاؤل-، أنّه طوّر فكرته تلك عن مصدر طاقة غير مسبوق، متوافر في اللّيل والنّهار في كلّ الفصول، وصناعته ثُمّ تحويله ستتكفّل بهما آلة بسيطة كتحيّة الصباح. كانت إيتيل، وقد صارت سيّدة عجوزاً، تتركه يتحدّث، الجميع يتركونه يتحدّث مثلما يتركونه بتسامح ينشر في مجلّاتٍ دنيا، في حدود النّشر على الحساب الخاصّ، وبتدخّل خفيّ من نورمان، رسوماً تخطيطيّة لمشروعين آخرين: نظام لاستخراج الكهرباء من ماء البحر ومحطّة حراريّة جوفيّة بالبخار.

إلّا أنّ تلك الأفكار، وغريغور واعٍ بذلك، ليست سوى استعادة لمحاولات إجماليّة سابقة، وقد بدأت تتقادم نوعاً ما، ومن المستحسَن إيجاد فكرة جديدة: وقد وجَدها.

Twitter: @ketab_n

في هذه الأوقات التي عادت فيها الحرب تهدّد كلّ مكان من العالم، خطرت بباله فكرة، ولم يكن مستاء منها. يتعلّق الأمر هذه المرّة بإجراء لا مرئيّ ذي قوّة عظمى، حزمة جزيئات ماحقة سمّاها بافتخارٍ شعاعَ الموت. السّلاح المطلَق.

هذا السّلاح، الذي يقوم على مبدأ تسارع الجزيئات- التي تعدو بسرعة قصوى حتّى أنّها لا تحتاج، في الإيذاء، إلى أنْ تكون كبيرة الحجم-، سيكون قادراً على إيقاف سيّارة في أوج سرعتها، وسفينه تمخر اليمّ أو طائرة محلِّقة، بأن يُذيبها بمنتهى البساطة. جهاز دفاعيّ كهذا سوف يجعل أيّ بلد، صغيراً كان أم كبيراً، قادراً في الوقت نفسه على ضمان حمايته وعدم قابليته للتّدمير من قبل القوّات المعادية، سواء أكانت جوّيّة أم بحريّة أم برّيّة. ستكون قدرته الرّادعة من القوّة ما يجعل إمكانيّة الحرب نفسِها غير متخيّلة ولا واردة. السّلاح المطلَق، قطعاً، سوف ينشر الانسجام العالَميّ. كانت تلك قبل خمسة وأربعين عاماً، وأيّاً كانت قيمتها، فكرةَ ألفريد نوبل مع متفجّراته.

عندما عرضت صحيفة نيويورك تايمز بإشفاق ابتكارَ

Twitter: @ketab_n

غريغور الجديدَ ذاك، حتّى وإن ولّد لدى قرّاء اليوميّة انطباعاً حماسيّاً، فإن المجموعة العلميّة هزّت رأسها بإيقاع كالعادة، ولم يوجَد سوى في هوليود من قال إنّ ثمّة مشاهد جميلة يمكن تصويرها، دون التّقشّف في الخدع السّينمائيّة. باختصار، تركوه دائماً يتكلّم، بسهولة لا سيّما وأنّ غريغور، بعد أثر الإعلان، صار يقتصد في كلامه. إذا امتنع بحرص عن تفصيل القول في مجمل مشروعه، وظلّ هذه المرّة محترزاً، فلأنّه محتاط بشكل مضاعَف. كان يخشى أوّلاً، كما هو الشأن دائماً في حياته وفي تاريخ العلوم، أن تولد تلك الفكرة في اللّحظة نفسها في ذهن عقول أخرى غير عقله، وأنْ تُسرق منه مرّة أخرى- وهو ما ناله في الغالب، حتّى ليكاد يعتاد، ولا يرغب أنْ يُخدَع من جديد. ولكنّه يتهيّب خاصّة من أنْ تستأثر بلاد واحدة، ولو كانت بلاده، باستغلال فكرته، وهو ما يُخلّ بغايته من السّلام الكونيّ.

وإذ قرّر أنْ يجعل الوصول إليها متعذّراً على قوّة وحيدة، ها هو يعود إلى خططه ذات مساء، ويبسطها على طاولة وبيده علبة غِرَاء ومقصّ، ويقصّها في ستّة أجزاء مستقلّة بعضها عن بعض، بحيث تقدّم كلّ واحدة زخماً

Twitter: @ketab_n

من المعلومات ولكنّها مفردةً لا تصلح للاستعمال، ومثل قطعةِ «بازل»، لا تكون ذات معنى إلّا على ضوء القطع الأخرى. قضّى في ذلك اللّيل كلّه. وعندما طلع النّهار، كان كلّ شيء قد سُوّي. بقي أن يضع كلّ جزء في ظرف ثمّ يصبر حتى فتحِ مكاتب البريد، وفي الوقت المحدّد، ذهب لإرسال ظروفه، كلّ واحد منها موجّه إلى إحدى وزارات الحرب في ستّ قوى عالميّة، على انفصال.

كان ذلك مكلّفاً من جهة طوابع البريد، ولكنّ اللّازمَ لازم. فبهذه الكيفيّة، وأمام ستّ قطعٍ خاضعٍ بعضها للبعض الآخر، سوف تُضطرّ الحكومات السّتّ إلى التفاوض وتتّفق معاً للحصول على رؤية شاملة للمشروع. فكرة جيّدة، الوحيدة في الحقيقة، لا يمكن أن تسير الأمور إلّا هكذا، عدا أنّ الوزارات لن تُجيب أبداً.

Twitter: @ketab_n

28

بعد عشر سنوات أخرى، في انتظار البريد الذي لم يصل لا قبل الحرب ولا أثناءها، لم يبقَ غير الحمائم. ليست تلك الموجودة في غرفته فقط، وإنما أيضاً حمائم برايانت بارك التي كان غريغور يُطعمها، عند هبوط اللّيل، حبوباً قديمة بأسعار مخفَّضة.

شخصيّاً لم أعد أطيق تلك الحمائم. أنتم أيضاً ما عدتم تطيقونها، أشعر بذلك. لم نعد نطيق، والحقّ أنّها، بما هي عليها من نكران جميل وتلوّن، ما عادت تُطيق غريغور. ملّت شخصه واستنقصت جودة تموياته، فقرّرت التخلّص منه.

العمليّة، التي دُبّرت بإحكام، ستدور في مساء شتويّ حين يغادر فندقه في اللّيل الصّقيعيّ الذي يبكّر بالهبوط،

Twitter: @ketab_n

دون أن يُوجّه التّحيّة لصبيّ المصعد ولا للبوّاب مثلما لم يعد يحيّي أحداً من زمن طويل. قليلة هي السّيّارات في الشّوارع، قليلون هم المارّة نظراً للجليد. كان ثلج خفيف ومنتشر يتساقط في نُدَف شاردة لامبالية، على قبّعة غريغور خلال سيره نحو الحديقة العامّة- حيث تكتّلت على أشجارها في شكل كومندوس حمائم تنتظره في صمت. ولمّا كان يتمهّل على الرّصيف أمام الحواجز المشّبكة، يرقب بغير انتباهٍ حركة المرور المتضائلة قبل عبور الطّريق، أبصرت الحمائم عن بعد، في الظّلمة البادرة، سيّارة. دوزنبرغ قديمة متأكسدة، مفلسة، في حال حطام تقريباً، مطّاط عجلاتها المصفرّ مفرَغ من الهواء إلى حدّ الثّلث، زجاجها ملوّث بالشّحوم ومشقّق، واقي محرّكها قطع ممزّقة، والصّدأ لا يكاد يدَع سوى رؤية بقايا أخضر أو أزرق يختلطان على هيكلها. كانت تسير ببطء، ولكنْ، فيما يبدو، دون تحكّم تامّ وكأنّ سائقها كان سكران، وهو كذلك.

وفيما تلك السّيّارة تتأهّب للمرور حيث كان غريغور، هجمت عليها الحمائم فجأةً في شكل فِرقة صداميّة

Twitter: @ketab_n

وحطّت معاً على واقية الرّيح، وتكدّست عليها وهي تنشر أجنحتها، مشكّلة طبقة سميكة من الثّلج القذر، فسدّتها وأعمتها في لحظة. داخل العربة، لم يعد السّائق يرى شيئاً فجأةً، ودون أن يجد الوقت ولا ردّ الفعل أو حتّى يفكّر في تشغيل مسّاحة الزجاج، قاده ارتباكه الذي ضاعفه السُّكر إلى تدوير عجلة القيادة بشكل أهوج، محدثاً انحرافَ سيّارة الدّوزنبرغ فانزلقت على بقعة من الجليد وصعدت على الرّصيف وصدمت غريغور وأوقعته على قفاه. ولم تكد الحمائم تقترف جُرمها حتّى طارت لتعود إلى أشجارها فيما كان السّائق، وقد عاد إلى الإسفلت، يلوذ بالفرار وهو يتعرّج.

بقي غريغور على الرّصيف غائباً عن وعيه، وقد تدحرجت قبّعته غير بعيد عنه واستقرّت مقلوبة، ممدّداً وحيداً في اللّيل الجليديّ ولا شكّ أنّه كان يمكن أن يموت، هناك، من شدّة البرد، لو لم يمرّ شرطيّ صدفةً أثناء طوافه. أسنده، وحاول أن يعيده إلى رشده، فغطّاه بمعطفه المبطّن بفَرو وراح يصفّر بكلّ قوّته، معلناً الإنذار كي يَجيء الإسعاف. غير أنّ غريغور، ما كاد يستعيد بعضاً

Twitter: @ketab_n

من وعيه حتّى ردّ على ذلك بغلظة، واعترض بثلاث كلمات حادّة على ما نسميّه سيّارة إسعاف، ودون أن تبدر منه أدنى كلمة امتنان، اشترط بكيفيّة بغيضة أنْ يُعاد على وجه السّرعة إلى فندقه.

عندما أعيد إلى الفندق، لم يَقبل بالعلاج إلّا من بعد ما دعا السّاعيَ بالهاتف: لا بدّ أنْ يأتي حالاً لتَسلُّم الحبوب والذّهاب لينوب عنه في برايانت بارك. ثمّ حضر طبيب استقبله غريغور كما يستقبل كلباً، فارضاً عليه أنْ يضع قناعاً ويلبس قفّازاً لفحصه. شخّص الطّبيب ثلاثة ضلوع مكسورة، وتُرقوة مشروخة وكسراً جزئيّاً في عظم القصّ، ووصف له راحة تامّة بثلاثة أسابيع، ولكنْ لمّا كان غريغور قد تعرّض للبرد، فقد أصيب بالتهاب في الرّئتين حوّل تلك الأسابيع الثّلاثة إلى ثلاثة أشهر.

مائة يوم من العزلة كان ذهن غريغور خلالها يتيه، وخوفه من الميكروبات يزداد إلى حدّ كان يتوسّل فيه إلى زوّاره القلائل، حتّى المقرّبين، حتّى إيتيل، بالبقاء على مسافة منه قدر الإمكان- باستثناء السّاعي الذي كان يرفع له كلّ يوم تقريراً عن مهمّته في الحدائق العامّة وأمام

Twitter: @ketab_n

كاتدرائيّة سان باتريك.

إن استطاع أنْ يتعافى من الصّدمة، فإنّ صحّته ظلّت هشّة. كان يعاني من اضطرابات في القلب، ويُغشى عليه من حين إلى آخر، ويزداد ضعفاً، حيث تسهر على راحته امرأة تنظيف كانت تأتي كلّ يوم لترتيب غرفته. ذات صباح، طلب غريغور من تلك المرأة بلجاجة، وهو ممدّد في فراشه، أنْ تعلِّق في أُكرة الباب لدى خروجها، ورقة مطبوعة يُرجى فيها عدم الإزعاج. ورغم تعالي أصوات الطّيور الجائعة، المضطربة في أقفاصها حول السّرير، انتظر النّاس ثلاثة أيّام قبل مخالفة تعليمته هذه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلّف:

يُعتبر جان إشنوز من أكبر مجدّدي الكتابة الروائيّة في فرنسا في العقود الأخيرة. ولد عام 1947 في مدينة أورانج الفرنسيّة، لأب طبيب نفسيّ وأمّ رسّامة. ولدى إنهائه الدراسة الثانويّة، بدأ بدراسة الكيمياء، ثمّ انعطف إلى علم الاجتماع، فالموسيقى، ثمّ عقد العزم على ممارسة الكتابة الأدبيّة. نشر حتّى الآن ثماني عشرة رواية، وكتب للسّينما عدداً من السيناريوهات. فاز في 1983 بجائزة مديسيس عن روايته «شيروكي»، وفي 1999 بجائزة غونكور عن روايته «أنا راحل». ينشر له مشروع «كلمة» ترجمة لثلاثة كتب صاغ فيها بلغة روائية سيَرَ ثلاثة من أعلام العصر الحديث وهم: المؤلّف الموسيقيّ الفرنسيّ موريس رافيل «رافيل»، والعدّاء التشيكيّ إميل زاتوبيك «عدو»، والمخترع ومهندس الكهرباء الصربيّ-الأمريكيّ نيكولا تسلا «بروق».

نبذة عن المترجم:

أبو بكر العيادي كاتب ومترجم تونسيّ مهاجر، ولد عام 1949 في جندوبة، ويقيم في فرنسا منذ 1988. نشر ستّ روايات وسبع مجموعات قصصية، ووضع كتباً بالفرنسية مستوحاة من التراث القصصيّ العربيّ والحكايات الشعبية التونسية، ونقل إلى العربية أعمالاً من الأدب العالمي منها: «أمراض الأدب القاتلة»، مقالات مختارة لمجموعة من الكتّاب الفرنسيّين، عن دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1990، ورواية «ذهول ورعدة» لأميلي نوتومب، القاهرة 2012، ورواية «مذكرات شيهم» لألان مابانكو، القاهرة 2015، عن الهيئة المصرية للكتاب. يعمل محرّراً بجريدة العرب، ومستشار تحرير بمجلّة «الجديد» اللندنية.

بـروق

طيفه المديد الشبيه بطائرٍ مائيّ ذي ذنَب عقعق أسود، بربطة عنق بيضاء وحذاء مُبرنَق (...) يرتسم أوّلَ الأمر في ظلّ المسرح، قبل أن تُظهر الأضواء الكاشفة شيئاً فشيئاً عدداً وافراً من الأجهزة ذات التردّد العالي. يحتوي الضّوء الخافت بكوّة في الجدار على لافتات تضيئها أنابيبه المعهودة، ولوالب ومصابيح أخرى لاصفة تروح أضواؤها وتجيء كالأنفاس. وهنا وهناك يومض من الدواليب المسنّنة برقٌ. أدوات نحاسيّة صغيرة، كرويّة أو بيضاويّة، تدور وحدها بسرعة فائقة على مناضد مغطّاة بالمُخمَل وتغير اتّجاه دوَرانها بانتظام. زاد غريغور في إطالة السّكون، بعد أن خيّم على المكان، ثُمّ بدأ يعرض سلسلة متسارعة من الأعاجيب الكهربائيّة.

السعر 50 درهماً

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة

كلمة KALIMA

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

9 789948 139638